المرتضى

للكتب السودانية

دوامات الشمال

رواية

حسن نور

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

كتابات جديدة



دوامات الشمال

رواية من النوبة

حسن نور

دوامات الشمال – رواية من النوبة

تأليف: حسن نور

الناشر: الشركة العالمية للطباعة والنشر

المدير العام: الشيخ عووضة

تنسيق داخلي: إيمان محجوب

تصميم الغلاف: سامر محمود

سنة الطبع: ٢٠٠٧

الطبعة الأولى

تليفاكس: ٦٩٨٩٥١٨

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٣١٨٨

الترقيم الدولي: 9 – 02 - 6208 - 977

البريد الألكتروني: Email: elshekh46@yahoo.com

إدارة المبيعات: ٠١٠١٢١٩٣٩٤ – ٠١٠٣٦٥٤٣٢٦

تنـــــويه

اعتمدت هذه الرواية في سرد الأحداث التاريخية على العديد من الكتب والمراجع التاريخية والسياسية على وجه الخصوص.

- **مقدمات ثورة ٢٣ يوليو** للأستاذ عبد الرحمن الرافعي
- **المثقفون وعبد الناصر** للدكتور مصطفى عبد المغنى

كذا رواية ١٩٥٢ عن (روايات الهلال) جميل عطية إبراهيم

دوامات الشمال

كنت أجرى مرتعباً .. التقطتنى عيناه فأطلق عقيرته زاعقاً: إيه يا ذا النون .. انتظر .. انتظر يا ولد.

كنت ألتقط أنفاسى بالكاد .. يعلو صدرى ويهبط بوضوح دخلت إلى أقرب بناية، دخلها على إثرى.

- ماذا بك .. لماذا تجرى هكذا ..؟

انتظرت حتى استطعت أن استرد أنفاسى .. ظلت عيناه معلقتين بشفتى .. لم أكد أنطق بحرف حتى قال وعيناه تتلفتان يمنة ويسرة .. فى قلق: تعال .. تعال.

وسحبنى من يدى وأدخلنى مبنى آخر، صعدنا إلى سطحه بمصعد .. اجتزنا درجاً حديدياً صدئاً .. أدخل مفتاحاً فى فراغ أحد الأبواب .. حرّكه شمالاً عدة مرات.

قال بعد أن ابتلعتنا الحجرة وأغلق بابها: أصبحنا فى أمان، فاطمئن واحك كل شيء، حكيت ما كان منى وما كان من أمر الأميرة لما خلى القصر علينا تماماً.

"ذهبت إلى غرفتها بكوب الماء الذى طلبته .. طرقت الباب الموصد، جاءنى صوتها من الداخل: ادخل.. كانت تقف امام مرآتها عارية تماماً.. تتطلع إلى جسدها المرمري وتتحسس يمامتيها النافرتين .. شُلت أعضائى لثوان .. قالت وقد بسطت نحوى ذراعيها: تعال .. تعال، ومشت نحوى .. تلاقت يدانا وعيناى تتغذيان من لحمها الأبيض الرائع .. أحسست أننى أطير .. ألهبت النيران جسدى وأنا أضمها إلىّ .. استلقت على سريرها .. لم أر شيئاً سواها .. هممت بها، لكننى سمعت صوتاً لم أتوقعه ..

- ما هذا .. مع بريرى .. كلب، حقير؟

وجدتنى مذعوراً كفأر وقع فى مصيدة .. هجم علىَّ رافعاً عصاه .. أوجعت الضربة كتفى، لكنى جريت خارجاً بعد أن أغلقت عليهما باب الحجرة.

وظللت أجرى حتى رأيتنى.

قال وهو يهز رأسه ببطء: لو طالتك أيديهم لن يرحموك .. أنتظرنى هنا .. لا تقلق.

وانتظرت فى الحجرة المغلقة حتى جن الليل .. ساورني القلق، قبل أن يأخذ بخناقى انفتح الباب .. هلّ علىَّ بوجهه الضحوك قائلاً: تعال، وأخذنى إلى موقف سيارات الأجرة. ركبنا الواقفه فى أول الصف .. «البرنجي»، وقال للسائق: السكاكينى يا أسطى ..

سألته عيناى مستفسرة .. وضع طرف سبابته رأسياً أمام شفتيه المزمومتين اخترقت بنا السيارة دروباً لم أعهدها ثم وقفت أمام بناية

قديمة، منقوشة الواجهة .. نزلنا درجاً إلى طابق تحت الأرض .. مشينا فى ردهة معتمة .. طرق أحد الأبواب الكثيرة المرصوصة إلى جانب بعضها .. فُتح عن شاب ذى بشرة داكنة .. دقيق الملامح .. قصير القد ..

- سلام عليك.

لم ينتظر رداً .. خطا نحو الداخل وهو يجرنى خلفه .. جلسنا على أريكة فى ركن إحدى الغرف .. كان هادئاً لدرجة أزعجتنى .. تبادل مع العم جزولى السلام والسؤال عن الأحوال وأخبار ناس البلد و.. قبل أن يقوم للانصراف عرفنى بصاحبه عبد الدايم عثمان .. من أبريم .. طالب بأصول الدين، ثم بعد أن قدمنى له قال .. سيبقى عندك عدة أيام .. لا تدعه يخرج إطلاقاً .. سلام آليك .. قال عبد الدايم لما رآنى صامتاً، غارقاً فى حزنى: قم .. تعال لترى شقتى المتواضعة، وشدنى من يدى إلى حجرة نومه .. حجرة واسعة، امتدت أرفف خشبية بطول جدرانها .. تكدست بالكتب، وأمامها ترابيزة سفرة قديمة يستخدمها كمكتب، وسرير خشبى فى وسطها وكرسيين عجوزين، خرجنا الى طرقة قصيرة تفضى إلى المطبخ .. أشار إلى علبتين وقال: هيا يا بطل .. اعمل لنا كوبين شاى وتعال لنتحدث قليلاً قبل أن أبدأ المذاكرة. وتركنى وحدى أواجه موقد الغاز القديم وأدوات المطبخ الفقيرة .. ثلاثة أكواب، أحدها مشروخة، وحلتين نحاسيتين وبعض العلب الفارغة وملعقتين وسكين .. حملت كوبَي الشاي إلى الحجرة الشاملة .. تعلقت عيناى بالكتب المرصوصة بانتظام .. أدب، سياسة، اقتصاد، تاريخ .. التقطت عيناى بعض عناوينها .. مخلوقات كانت رجالاً، نذير العاصفة، الأم، الحرب والسلام، المبادئ الأساسية للنظام الرأسمالي.

تركنى عبد الدايم لأشبع نهمى، ثم قال متسائلاً: هاه .. ما رأيك..؟

قلت: يبدو أننى لن أشعر بملل أو ضيق هنا .. يمكنك أن تتركنى وتغيب كما يحلو لك دون أن تشغل بالك بى.

- ألهذا الحد..؟
- أكيْد أنا محظوظ.
- هل تقرأ كتباً بعينها؟
- لم أحدد لنفسى منهجاً بعد، وان كنت قد بدأت بالاقتصاد.
- وماذا قرأت فيه..؟
- ثروة الأمم، ونظرية السكان، و
- دون أن تقرا المدخل..؟
- ثم قام واتجه إلى المكتبة والتقط كتاباً، وناولنيه قائلاً:
- اقرأ مشكلة الثروة جيداً، حتى يسهل عليك استيعاب كل ما ستقرأه فيما بعد.

كان العم جزولى يزورنى من حين لآخر لينقل إلى أخبار جدى وإخوتى، وكان لا يفوته أن يترك لى مبلغاً بسيطاً من المال لأساهم به مع عبد الدايم فى تكاليف الوجبات اليومية، ولم يكن يقلقنى آنئذ سوى انقطاع أخبار العم دهب وولده جمال والعم كُباره وحمد، وعجزى عن المساهمة فى مصاريف أمى وأخواتى، فلم أجد مفراً إلا إلى صفحات الكتب أدس فيها عينى وأروح أقرأ حتى يغلبنى النعّاس، الذى استعصى علىّ بعد قراءة «مخلوقات كانت رجالاً».

فقـد أحـدثت فـىّ جرحـا غـائراً ، إذ جسـدت معانـاة الفقـراء وعذاباتهم من ذل الفاقه وظلم الحكام وقسوة السجانين الـذين تجـردوا مـن آدميـتهم ، وكـثيراً مـا كـان يجـئ عبـد الـدايم مـن الخـارج ليجـدنى منهمكاً في القراءة فيؤثر أن يتركنى أكمل مشوارى معها ، وأحياناً مـا كان يدخل معى في مناقشات طويلة فيما قرأت ، وكان ما يثير دهشتى سـعة ثقافتـه وتنوعهـا ، فأسـائل نفسـى: متـى بـدأ هـذا الشـاب القـراءة..؟ وكيف استطاع استثمار وقته ليقرأ في جميع فروع المعرفة؟ لكن سرعان مازالت دهشتى عندما عرفت أنـه لا ينـام الليـل لعـدة أيـام ، دافسـاً عينيـه خلالها بين صفحات الكتب..

ظننتـه في البدايـة انـه يسـتذكر دروسـه ، حتـى لمحـت ذات مـرة عنوان الكتاب الذى كان يقرأه فأدركت خطأ ظنـى .. سـألته إن كـان لا يذاكـر دروسـه..

ارتسمت علامات الدهشة علـى وجهـى ، أدركهـا فقـال: بالنسبة لدروس التجارة فإننى أكتفى بمـا أسمعـه في المحاضـرات ، مـا عـدا المـواد العمليـة ، أمـا المـواد الأزهريـة فقاطعتـه متسـائلاً: مـاذا .. هـل تـدرس في كليتين في آن واحد..؟

أومأ قائلاً: نعم.

قلت: كيف؟

قال: حصلت علـى التوجيهية نظـام الخمس سنوات مـن المـدارس الليلية وأنا في الثالثة الثانوية الأزهرية فالتحقت بكلية التجـارة منتسـباً ، ثـم بعـد عـامين حصلت علـى الثانويـة الأزهريـة فالتحقت بأصـول الـدين .. ولكن ماذا عنك أنت يا صاحبي..؟

«كم أنت نبيل يا هذا ، وكم أنت إنسان، . لم تشأ أن تسألنى عن شخصى يوم أن جاء بى العم جزولى إليك .. رحبت بنزولى بشقتك لمجرد أننى إنسان، ولو لا أن الموقف استدعى سؤالى لما فعلت.»

استطال الصمت بيننا فقال: إن كان سؤالى هذا ضايقك فإننى أعفيك من الإجابة عليه.

قلت: لا .. لا .. إطلاقاً ، سأحكى لك كل شيء .. من طق طق حتى مجيئى إليك.

* * *

أطل الفزع من عينيها ، وغشت الرعشة صوتها وهى تأمرنى بأن أجرى لأحضر الطبيب .. ملأنى الخوف فأخذت ذيلى في أسنانى وجريت .. جرى صوتها الملتاع ورائى: لا تعد بدونه.

رحت أعدو .. أجرى .. ألهث .. أعبر القنطرة الخشبية .. يتلقفنى نباح الكلاب .. كلاب كثيرة .. هائمة .. هائجة .. نابحة .. مزمجرة .. يركبنى الخوف، تُشل قدماى .. انتزعهما .. أهرول .. أجرى.

- إجر يا ولد .. لا تعد إلا به.

لماذا صار وجهه هضيماً ، ذابلاً ..؟ وعيناه السوداوان باتتا نُقرتين لامعتين فوق نتوءى عظمتى الخدين .. كدت أصطدم بدولاب الكهرباء الصاج المزروع في الطريق كمارد ضخم .. ارتعبت لما التقطت عيناى رسم الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين.

قال لأمي: النار تأكلنى.

كـان جسـده الضـامر ينـتفض بشـدة فـوق السـرير الكـبير ذى الأرجـل الطويلـة السـوداء، التـى تنتهـى بعـرائس صـفراء كالحـة، كـان بريقها يخطف الأبصار قبل أن تنشغل أمى بمرض أبي .. جرت إلى صينية القلل المتجمع فيها نقـاط المـاء البـارد .. كومت فيها قطـع من القمـاش .. تشبعت بالماء .. بسطتها فوق جبهته .. رأسه .. ساقيه. أكلنى قلبـى عليـه .. أبـي الـذى لم أره أبـداً يشـكو من شـيء يـبرك .. يهزمـه المـرض .. قبـل أن أجرى إلى خـارج الـدار فزعـاً أطل عليه. أغرس عينـى فى عينيـه .. يسـقط قلبي لما أفتقدت بريقهمـا الـذى كـان يطـالعنى بـه دومـاً وهـو يسـألنى عـن أخبار المذاكرة .. ألف سلامة لك يا أبي.

تسافر عينـاى إلى السمـاء .. تتمتم شفتاى: يا رب خذ بيده.

كلّت ساقاى وهما يتلويان بين الدروب بحثاً عن عيادتـه .. سـألت عنه طوب الأرض .. من فضلك .. عيادة الد..؟ أخيراً طالعتنى لافتـه صـغيرة سوداء مبثوث فوق سطحها أحرف صغيرة، بيضـاء .. إخصائى حميات.

لما انتفض جسـده بشـدة قـال لأمـى مـن بـين أسـنانه التـى كـانت تصـطك ببعضـها: غطينـى .. فوضـعت فوقـه الحـرام الصـوفى والسـجاجيد المصنوعة من الخرق القديمة الملونة.

إيه يا أبي .. ماذا ألم بك؟ أمرض خبيث فاجأك .. جاء من ورائـك واندس خفية فى جسدك ..غافلك فنال منك؟

لم أشعر بدموعى وهى تنسـال علـى خدى لما رأيت ظـلالاً بيضـاء تختلط بسواد عينيه.

كدت أتعثر وأنا أصعد الدرج الغارق في الظلمة والرطوبة .. استعنت بالجدار المتآكل .. ملأت أنفي رائحة خانقة .. تعمدت أن أحك مداسي بكل درج أصعده .. هدأت نفسي لما التقت عيناى ضوءً باهتاً يتسرب من أحد الأبواب المواربه.

أطلت عليَّ عيناه الخرزيتان القابعتان وراء عدستين سميكتين .. سألته عن الطبيب.

أشار إلى باب مغلق في نهاية ردهة طويلة. قائلاً هنااك .. في هذه الحجرة.

يتردد السؤال داخلى ملحاً: يا رب.

ابتلعتنى الغرفة .؟. كان قابعاً وراء مكتبه الذى اختفى سطحه تحت أكوام علب الأدوية والكتب الضخمة .. التقطنى عيناه القلقتان.

قال: تفضل.

نظرت إلى وجهة، فأطل عليّ وجه أبي.

سألتنى عيناه: ماذا ..؟

الوجه ممصوص، والخدود ناتئة العظام.

قال محتداً: نعم ..؟

قلت: إنه ينتفض.

سألنى عن حرارته.

قلت: نار.

التقط حقيبته وراح يهرول، عدوت وراءه.

لامست أصابعه المتوترة الجسد الممد فوق السرير .. كمن لسعة حريق زعق: كيف تركتموه هكذا ..؟

بالأمس قالت لى أمى: أسرع إلى عمك عبدون ..هاته معك ..

جاء مهرولاً .. دعك له كل جسمه بالخل .. قبل أن يدثره في ملابسه لفه بورق «الجورنال».

قالت له أمى: عاد أمس من عمله قبل موعده، يشكو من صداع في رأسه، وفجأة ارتفعت حرارته وارتعش بدنه .. عملت له شايا، شربه مع قرصين أسبرين .. نام، لكن الصداع لم يفارقه.

قال عمى مطمئناً: شوية برد .. حالاً يستعيد صحته ويعود كما كان إن شاء الله.

جاءت أمى بالمنقد .. رمت فوقه قطع الفحم المتوهجة وحبات الشّبه وخلطة البخور الجاوى وعين العفريت وخشب الصندل ثم ذرات الملح.

تمدد صوتها عبر أكوام الدخان: ووإلهى .. يا رب .. اشف رجلى .. أبو الصغار .. ووالهى .. ليس لنا غيره بعدك، وأنا حُرمه ضعيفة، أستظل بظله وأحتمى بفتوته، فابقه يا إلهى من أجلى وأولاده.

دس مقياس الحرارة في فمه .. نقر بطرف أصابعه المتوترة عظام صدره .. سحب مقياس الحرارة .. رفعة إلى مستوى عينيه .. غشاهما الارتعاب لما التقطتا الرقم الذى استقرت عنده العلامة الحمراء .. تمتمت شفتاه الحادتان بكلمات غاضبه، ثم راح ينقل القرص المعدنى المتصل بأذنيه إلى كل جزء في صدره وظهره .. لم يستطع كبح جماح ارتعابه .. أخرج من حقيبته دفتراً صغيراً وقلماً .. خدل بعض الكلمات بأحرف لم أعرفها .. اختطفتها عمتى فاطمة النور وجرت نحو الدرج .. استوقفها متسائلاً: زوجته؟

نظـرت إلى عينيـه .. كتمـت صـرختها .. زفرتهـا سـؤالاً احتـوى قلقها: هل الحالة خطيرة ..؟

قال متمهلاً: ربنا كبير ..

قبل أن تغيب الشمس جاء أعمامى وعمتى بحرية النور، ثم توالى مجىء نـاس البلـد امـتلأت حجرتنـا الوحيـدة بهـم .. اكتسـت وجـوههم بـالحزن، كانـت إنـدى فـاتون[1]، جارتنـا الجنـب، أكثـرهم حزنـاً، لم تكن تفارق أمى إلا للنوم .. أذهب إلى المدرسة وأجيء .. أجرى إلى الحـارة وأجىء، فأجدهما معاً .. تطهيان أو تغسلان، أو تكون إحداهما مشغولة بعمل والأخرى مشغولة بعمل آخر .. المهم أنهما معاً دائماً.

أفلت الشـمس .. زفتهـا الغيـوم الرمادية إلى قبرهـا اليـومي، مالـت رأسه وتاهت نظراته .. أمى صرخت ولطمت خديها .. صرخت إندى فاتون وعمـاتى وكـل النسـاء .. في لحظـات جـاء أعمـامي .. تحلقـوا الجسـد السـاجى، انكبـوا عليـه .. جعـروا بالبكـاء .. زلـزل بكـاؤهم كيـانى .. تمنطقـت أمـي وعمـاتى بشـيلانهن ورحـن يتقـافزن ويعـددن بكلمـات منغومة .. أمى غطت وجهها وذراعيها بالنيلة الزرقاء .. سقط قلبي ألماً .. قلت لها ودموعى تنفلت من عينى: لأ يا أمى .. لأ .. حرام .. حرام.

تماسـك عمـى عبـدون وراح يهـدئ مـن روع إخوتـه .. انسـحبوا مـن الحجـرة إلى الحـارة .. بدأت أسـراب الرجال والنسـاء تجئ من كل فج على الرغـم من دخـول الليل .. جـاءت جـدتى مسكـة النـور صـارخة، مـولولـة ..

---

[1] أمى فاطمة .. هكذا ينادى الصغار من هن في أعمار أمهاتهم، إذ أنهـم لـم يعتـادوا منـاداة الكبيرات بـــ يا خالة، كما هو الحال في مدن الشمال.

انكبت على الجسد الساجى .. ألصقت وجهها بوجهه وهى تبكي بحرقة .. تحوطتها العمات .. تلامست رؤسهن، يبكين ويعددن .. أما أمى فقد سافرت عيناها إلى البعيد .. ذهبتا إلى التيه .. إلى الضياع الذى ينتظرنا بعد رحيل فارسها إلى حيث سبقه أبوها الذى لم تهنأ بدفء حنانه، وأخوها غير الشقيق الذى كان قطعة منها .. نصف الفولة الثانية .. مازالت تقاطيع وجهه الآسر محفورة في قلبي .. معششة فيه .. كل يوم جمعة كان يأتينا ويأخذنى إلى حضنه ويمطر وجهى بقبلاته .. أفتش جيوبه .. التقط قطع الملبس وقرطاس السودانى .. أنفلت من بين يديه وأجرى الى أمى مهللاً: خالوجه .. خالوجه، وفجأة انقطع عن المجىء .. كل مرة تقول لنا لما نسألها عنه: خالكم مسافر، فلما طال سفره الححنا في السؤال، قالت وقد اغرقت الدموع وجهها: خالكم مات .. خالكم مات.

شلتنى المفاجأة .. لفتنى دوامات الحزن .. أخذتنى إلى قيعان التيه .. وجدتنى اتساءل: لماذا يموت من نحب؟

* * *

تكدست الدار بأكوام السواد .. كل واحدة تجىء مولولة، ثم تأخذ رؤوس أمى وعماتى إلى رأسها .. تعدد فيعددن ويغرقن في النهنه:

إهئ إهئ إهئ .. ى .. ى .. ى .. إهئ

ساعات مرت وساعات حتى انتصف النهار .. شعرت بالجوع يقرض أمعائى .. يهاجمنى في ضراوة .. تقرقر بطنى .. جريت إلى البيت .. التقطت عيناى أمى من بين النساء .. عبرت لجتهن إليها .. أخذتنى إلى حضنها وهى تعدد:

أفراخك صغار يا رجلي والدهر قاس إهئ إهئ إهئ

أفراخك صغار فمن لهم بعدك إهئ إهئ إهئ

الخالة محروسة خلعتنى من بين يديها .. امسكت بطنى لكننى لم أستطع أن أبوح بشىء .. قالت عمتى آشا .. ابك يا ولدى .. اذرف الدمع على أبيك الذى لن يعوضك أحد عن حنانه .. اذرف الدمع عليه حتى تتخلص من نزق الصبا ، وحتى يمكنك تحمل المسئولية الكبيرة التى تنتظرك وإخوتك.

(ماذا .. أبي مات؟ لن أكمل تعليمى؟ سأكبر وأهيم على وجهى كالبهيمة .. لا .. لا .. أمى .. أمى ..).

بسم الله الرحمن الرحيم ..

وأخذتنى بين ذراعيها وهى تتمتم بآيات من القرآن ..

ارتعبت عماتى والنساء.

- ماذا حدث للولد.

- عينى يا ولدى.

وأخذتنى عمتى بحرية النور إلى صدرها ، ثم سقتنى ماء وهى تبسمل وتحوقل وتمسح بباطن كفها على جبهتى، ثم سألتنى: هل أكلت شيئاً؟ ثم دست في كفى قرشاً لما أجبتها بالنفى.

اشتريت رغيفاً وجبنا وذهبت إلى حارة بعيدة لألوك لقيمات لم أستغسها وظللت قاعداً مكاني حتى هجم الليل، فجريت إلى البيت .. لم تزل أكوام النساء تشغل كل الحجرات، والفسحة الكبيرة والبسطة الخارجية .. أخذتنى لخالة حليمة إلى حجرتها بالدور العلوى لأبيت مع

ولديها عوض وربيعة .. حطت لنا طعاماً على الطبلية ونزلت ثانية إلى حجرتنا لتكون بجوار أمى..

تحلقنا الطبلية .. تمددنا بجوار بعضنا بعد أن رفعت ربيعة الطبلية والصحاف .. أخذانى بينهما .. قالت ربيعة: لا تحزن .. كلنا سنموت.

أو مأت برأسي موافقا

قالت: ما رأيك .. نحكى حواديت؟

سمعت صمتى فقالت: فانه ونُجدنا كمج جچرما ..[٢]؟

قلت ضاحكاً من ركاكة نطقها: ستفسدين لغتنا يا ربيعة

قالت: غداً أتزوج وأسافر الى البلدة، وهناك أتقنها.

استسلم عوض للنوم بسهولة، وعلا شخيره .. قلت لربيعه:

لا .. لم أسمعها ..

سألتنى لما انتهت من حكايتها: حلوة ..؟

قلت لها وقد تذكرت حكايات ألف ليلة التى كنت أسمعها من المذياع:

شهريار الملك تزوج من شهرزاد بعد الليلة الألف.

دست يدها في فتحة جلبابى .. جاست أصابعها فوق صدرى تداعب شعيرات نبتت على استحياء .. في عينيها غرست عينى .. كانت في لون الليل .. تماماً مثل عينى البنت الهندية الحلوة في فيلم علاء الدين .. حتى السمرة الحلوة مثل سُمرتها.

تقول:

---

(٢) هل سمعت حكاية «فانه ونجد» ..؟

وكل يوم تضع شهرزاد رأسها على صدر الملك وتنام، وأغمضت عينيها ونامت، وظلت عيناى مغروستين في بياض الجدران، ودوائر النشع المتخلفة عن ماء المطر الذى يتكوم على سطح البيت، وفى سكون الليل يتسرب إلى أذنى بكاء أمى على أبي الذى توسد عرقه ورحل عن عالمنا في عز شبابه .. لكن كيف؟ كيف يموت قبل أن يحقق شيئاً من آماله؟

(سأجمع بعض المال وأعود إلى النجع لأستصلح مساحة من الأرض المنبسطة وراء الجبل، وسأحفر بئراً أو أشترى ماكينة لرفع المياه، وأجىء من السودان بفسائل البرتموده والملكابي.

أسأله ملهوفاً: هل ستأخذنى معك؟

قال وهو يمسد على رأسى: ستدخل الأزهر.

كيف مات إذن وتخلى هكذا بسهولة عن آماله العظام التى كان يتوق لتحقيقها؟ ومن لى بعده ليوسد رأسى الوسادة لما تثقل جفونى بعد ساعات المذاكرة على اللمبة الغاز نمرة عشرة..؟ من سيطبع قبلة على جبينى ويبسط الغطاء على جسدى؟ ومن الذى سيسألنى عما حفظت من سور القرآن كل ليلة؟ ومن الذى سيشد من أزرى ويدفعنى لطلب العلا؟ ومن سيأخذنى تحت جناحيه بعيداً عن حارتنا لما أقول له أريد أن ارى دنيا غير الدنيا وناساً غير الناس، فيقول لى: استعد لتذهب معى عصراً.

كدت أطير فرحاً .. جريت إلى جلبابى الجديد المطوى بعناية والمدسوس بين خشب الملة القديم والمرتبة الرثة .. لبسته، ثم انحنيت تحت السرير لألتقط العلبه الكرتون وأخرجت منها صندلي .. دسست فيهما

قدمي وعلى رأسي وضعت طاقيتى المزركشة التى طرزتها لى «إندى فاتون» .. سألتنى أمى وهى قابعة أمام موقد الغاز تُعد شاي العصر: لم العجلة؟

جريت إلى الدرج .. تقافزت قدماى.

أبوك مازال نائماً ولن يستيقظ قبل ساعة .. جرى صوتها ورائى، هربت منه .. وقفت في الحارة نافشاً ريشي ولا أحسن ديك .. تدور عيناى يميناً وشمالاً .. أماما ووراء، لم تلتقطا أحداً من رفقتى .. خافوا من زخات المطر التى أغرقت بلاطات الحارة فصيرتها لامعة .. تحسرت على أبهتى التى لن يراها أحد منهم .. همد صدرى وانطفأ الألق الوليد في عينى .. .. استدرت لأرتقى الدرج ببطء شديد وكأن ساقاي مشدودتان إلى أكياس من الرمال .. كانت شقيقتى الصغرى حوشية تتقافز نازلة .. سألتها: إلى أين؟

قالت: سأشترى شايا.

خطفت منها القطعة المعدنية وجريت إلى دكان عم شاطر في آخر الشارع .. الدكان بعيد عن حارتنا، لكن رغبتى في أن يرى الناس أبهتى سيطرت علىّ .. دسست قرطاس الشاي في جيبي وقفلت عائداً في تمهل.

* * *

انقشع الغمام وكف المطر، ونفذت أشعة الشمس الواهية إلى سطح الأرض .. استكانت كفى في كفه .. أهرول ليتواءم خطوى مع خطوه .. أتلوى مع الحارات الملتوية .. يستقيم سيرنا في الشوارع الكبيرة .. البنايات العالية تحيطها من الجانبين ..

يااه .. كم طابقا ..؟ واحد .. ثلاثة .. سبعة .. اربعة عشر .. ياه أربعة عشر طابقاً.

أمعقول هذا ..؟ وما هذا .. عربات تسير فوق قضبان، وأسلاك تمتد في الهواء ..

قال لى أبي: هذا ترام يسير بالكهرباء.

(وهذه المياه التى تجرى من تحتنا في النهر .. أهو بحر النيل يمتد على طول بلادنا هناك أمام الخزان ..؟ وما هذه الكتل الحديدية الجاثمة فوق صدره؟).

ازداد التصاقاً بأبي عندما وطأت أقدامنا عروقاً خشبية تمتد بعرض الطوار .. حمدت الله بعد أن انتهينا من عبوره إلى الأسفلت .. أرسل عينى إلى مداهما، أبحث عن النخيل الباقية .. عن الدور فوق التلال .. عن الدروب الرملية .. عن رفقتى السمر .. آآى.

اصطدمت أصابع قدمي برصيف عال .. ما هذه المرأة التى تسير أمامنا؟ بيضاء كما الحليب .. لكن لماذا تسير هكذا ..؟ تتثنى كدودة نشطة .. تتقصع، وما هذا الذى ترتديه ويكشف عن ساقيها وصدرها الغنى البض؟ وما هذا الحيوان الصغير ذو الفراء الأبيض؟ ولماذا تربطه بسلسلة وتجره وراءها؟ وما هذه الأشياء الكثيرة الحلوه المعروضة في النوافذ اللامعة؟ وما هذا المبنى الواطئ الأنيق الذى تحيطه حديقة واسعة غناء .. مدرسة؟ أهذه مدرسة حقاً؟ سبحان الله .. إذا كانت هذه مدرسة فماذا نسمى ذلك المبنى المتهالك الذى ينوء تحت اللافته الكبيرة السوداء، والتى يجلس على بابها دائماً العم لمعى الفراش، ويحو 'ها باعة

الدوم والنبق والحرنكش والنداغة المعطوبة ولعبة النيشان والبخت؟ وما هذه السيارة الكبيرة المكتوب على جانبيها نفس اسم المدرسة ..؟ ومن تلك الفاتنة التى تجلس في مقدمة مقاعدها، خالعة على ثغرها بسمة عذبة وهى تستقبل أطفالاً يرتدون زياً مشابهاً ..؟ سبحان الله .. أهؤلاء تلاميذ مثل تلاميذ المدرسة الالزامية التى كنا نذهب إليها بأي زى .. أى بنطلون أو أى جلباب. وبأى مداس، تتدلى من رقابنا أحبال تنتهى بمخال مدسوس فيها كتب وكراريس وأجزاء من القرآن، وأقراص طعمية وقطع جبن قريش وأرغفة بايته، نلوكها بتلذذ في الفسحة الكبيرة ونحن نتساءل:

- أحفظت الواجب ..؟

تُرى ماذا فى حقائبهم الجلدية الأنيقة؟ أكيد أكيد ليست أقراص طعمية ولا ..

- فيم سرحت ..؟ انتبه .. اسرع.

هرولت .. احتوت كفه كفى .. الشوارع مستقيمة .. نظيفة .. يلفها السكون والهدوء، والبنايات تحيطها الحدائق، وعيناى تدوران .. فى دهشة تتقافزان .. تلتقطاه من بعيد ..

كان مسترخياً فوق دكة خشبية أمام أحد البنايات .. الجلباب أبيض كما الحليب، والعمامة تقف ذؤاباتها مشرئبة كوحدات هندسية بديعة حول جدار مسجد عتيق .. الوجه أبنوسى لامع، والأسنان بيضاء كما اللؤلؤ .. لامعة، مرصوصة فى انتظام بديع، والعينان واسعتان، ذكيتان، مـسوستان فى وجه مكتنز.

- أهلين ووأوسمان (يا عثمان) تيبرى .. إنّا هال ..؟

صار أبي فرحاً وهو مقبل على الرجل، وقد بسط نحوه ذراعية .. هب واقفاً وقد ملأت بسمته صفحة وجهة.

استقام فبان القد ممشوقاً فى امتلاء بسيط .. بسط ذراعية نحو أبي وأخذه فى حضنه .. خبط كل منهما على ظهر الآخر.

- كيفك يا جزولى يا خويا ..؟

- لم نسمع أخبارك من مدة طويلة.

كان الصوتان فرحين .. مختلجين.

- لو كنت تأتينا فى الجمعية لسمعت.

- والله الظروف يا ابن العم، لكننى ساجئ .. حتماً سأجئ إن شاء المولى.

ضغط أبي على ذر صغير مثبت على يمين باب معدني .. تدلت أحبال سلكية غليظة من أعلى، هبط على إثرها صندوق كبير توقف وراء الباب المعدنى .. فتح باب الصندوق عن مرايا فى كل جانب فرأيتنى أقف وراء بعضى فى صف طويل .. فنجلت عينى دهشاً وكدت أضحك على نفسى .. ضغط أبي على أحد الأزرار المتراصة رأسياً على أحد جوانبه .. جرى الصندوق لأعلى.

اتجهنا إلى أحد الأبواب الكثيرة الموصدة .ضغط على زر بجوار الباب .. انبعث صوت بلبل.

(غير معقول يا أبي .. إما أنك ساحر، تسحر هذه الأشياء فتأتمر بأمرك، أو أنك نبى تظهر على يدك بعض المعجزات. لم يستجب أحد

فضغط ثانية على الزر .. طول عمره كان يأتى بها هناك .. ألم يركب ذات يوم دابته فى ليلة مظلمة، احتجبت فيها النجوم وراء الغيوم وذهب إلى وراء الجبل، متحدياً الجميع وجاء بحمل بعيره مليئاً بالجير الأبيض؟ ألم يلق ذات مرة بنفسه إلى النهر وسبح فى المياه الطامية أيام الدميرة حتى تخطى الشمندوره وغطس وسط الدوامات، ثم غطس لدقائق كثيرة حسبناه وقتها قد لحق بالصبى الذى لفته الدوامات وأخذته الى الأعماق، فأكلنا القلق، وقبل أن يطحننا رأيناه يطفو سابحاً وهو يسحب الصبي من أحد ساقيه؟! ماذا حدث إذن يا زين الرجال؟ وكيف أصاب جسمك السقم والعلة؟ وما بال هذا الهزال الذى اعتراك؟ ولماذا تستسلم هكذا للموت دون مقاومة؟ أهو مخيف إلى هذا الحد .. قوى لا يُقهر؟ فلا ينقره فى عينيه .. لا يقاومه؟! كيف رحل ونبته مازال غضا.؟ لماذا انسحب قبل أن يقوى عوده وتشتد سيقانه فيستطيع مواجهة الرياح؟ بل لماذا يجىء من أساسه ..؟

ارتجت الجدران من نحيب الرجال .. عمى عثمان النور غطى وجهه بمنديله وراح يجأر.

واجله شوجى يا اخوى.

يا الفراج الطويل يا اخوى.

وعمى عبدون أقعى بجوار الجسد وقد ألصق وجهه بوجهه وهو ينشج ببكاء مر، وأنا أقف بينهم حائراً، أقلب عينى فى الجميع ولا أشعر إلا بدموعى تتسال على وجهى.

- صلوا على النبى.

- وحدوا الله.
- ما دائم إلا وجهه تعال.

وأخذوهم إلى الحارة .. كانت الكراسى والأرائك قد خرجت من كل البيوت ورصت على الجانبين، جلس الرجال بيض الوجوه وسودها مجللة بالحزن .. انهمرت الدموع من الأعين لما رأوا الجثة مكمورة فى كفنها الأبيض .. تناثرت صرخات النساء فى الفضاء، وسَّدوا الجثة فى الصندوق وغطوها بالمخمل الأخضر .. حملوه فوق الأكتاف وأخذونى وأخوىَّ نسير وسطهم وراء النعش.

تقف المركبات عند تقاطع الطرق، يقف المارة والجالسون فى المقاهى وأمام المحال .. يشرّعون سبابات يمناهم .. بالشهادتين تتمتم شفاههم: لا إله إلا الله .. أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

تعبت رجلاى .. ردمنى التراب .. ضمتنا واجهات الأحواش، أطلت علينا الشواهد ونباتات الصبار .. انشقت الأرض عن صبية حفاة، يغطى وجوههم التراب والذباب .. تقاطروا وراءنا .. اللافتات الرخامية البيضاء تحمل أسماء الموتى .. قبر المغفور له فلان باشا .. هنا ترقد ترتانه هانم ..

حتى فى الموت يا أولاد الكلاب؟

مدافن قبيلة البشيراب .. كانت أبواب الحوش مفتوحة .. ضاق بنا .. رفع صبية التربي حجرين كبيرين مستطيلين، كشفتا عن هوة سحيقة مظلمة . غاص فيها أحدهم، مد ذراعيه وتناول الجثة واختفىَ .. أحسست بضياعي فصرخت: آآه يا أبويا.

غامت الدنيا حولى .. شعرت بدوار عنيف، لم أحس بعده بشيء إلا وأنا ممدد على سرير فى حجرة عمى عبدون والكل واقف حولى ..

- لا اله إلا الله.
- الحمد لله على سلامتك.
- شد حيلك.
- كن رجلاً
- سُنة الحياة.

جاءوا لى بكوب ماء .. قمت .. أحسست أنى سأقع .. لم يغب عنى مشهد الجثة وهى توارى فى التراب .. آآآه .. تتقاطر الدموع فى جوفى .. يسقط قلبي ..

ألهذا الحد يبلغ الهوان بأعظم مخلوق على وجه الأرض .. يموت فيتساوى بالتراب؟ لماذا كان ولماذا يموت؟!

قال لى عمى عبدن وهو يمسد شعر رأسى: شد حيلك وكن رجلاً، فأمك وأخواتك يحتجنك، ثم أخذنى من يدى إلى الحوض لأغسل وجهى.

أخواتى اثنتان .. زهرة، وهى الكبرى .. لزمت الدار بعد حصولها على الابتدائية .. قالت مسكة النور .. جدتى لأبى – البنت كبرت ويجب أن تلزم الدار .. زعلت من أبي الذى وافقها على الرغم من تفوقها، لكنى لم أقدر أن أقول له ذلك، الشيء الغريب أن زهرة قابلت ذلك باللامبالاه .. كأن الأمر لا يعنيها ..

لماذا ..؟ سألتها

قالت: فى النهاية سأتزوج وألزم الدار.

وهل من الضرورى أن تلزمى الدار .. سألتها ثانية.

لم تعرنى التفاتاً، وتركتنى أمضغ غيظى.

ومنذ لزمت الدار أصبحت ثالث ثلاثة لأمى وإندى – أمى – فاتون .. أجادت الطهى وأعمال البيت .. والصغرى حوشية التى جاءت إلى الدنيا قبل رحيل أبي ببضع سنوات فتطيرت منها أمى.

أكيد ستسافران مع أمى إلى البلدة ليعيشن هناك حيث بساطة الحياة وقلة تكاليفها .. أما أنا فالله أعلم بمصيرى الذى ينتظرنى .. ماذا سأعمل .. خادم أم صبي ميكانيكى .. أى صبي .. صبي ..؟!! كيف. وقد بلغت من العمر سبعة عشر عاماً.. ؟!

* * *

فى شارع ضيق ازدحم بالمحال ونوافذ العرض وبضائع الباعة الجائلين توغلنا .. خطفت عينى البضائع المعروضة .. ملابس داخلية وقمصان نوم وأقمشة وأحذية وبضائع كثيرة تمتلئ بها الأرصفة، ونهر الشارع قد غرق تحت أقدام الكتل البشرية المتلاحمة .. خفت أن تجرفنى فكلبشت كفى فى كفه .. قال وقدماه تلمسان الأرض: أسرع.

كنت أهرول فجريت .. هاجمت انفى روائح الدهون ودخان شيء اللحوم .. تقافزت عيناى فوق الأحرف المبثوثة فوق اللافتات .. الدهان، كوارعى العهد الجديد .. الدخاخنى .. أبو عوف.

لما احتوانا المحل الكبير تحررت كفى من قبضة يده .. صعدنا درجاً ضيقاً .. يااااه .. ما كل هذه الأقمشة..؟!

رآنا فافتر ثغره عن بسمة جذلة .. كشفت عن صف من اللآلئ الدقيقة .. البشرة حرقتها شمسنا القاسية .. قال بفرح طفولى: إنًا هال وأبّاس .. تيبرى ..؟

أجاب عمى عباس: الحمد لله.

استشف الحزن من صوته .. شفتيه المزموتين .. حاجبيه اللذين كاد أن يتلامس طرفاهما العريضان.

- مالى أراك حزيناً هكذا ..؟
- أجاب وهو يمسد شعرى: أخى.
- سبحان الدائم .. ليت الحزن يعيد الأحبة .. وهذا ولده ..؟ شد حيلك يا ولدى. وأسرع الى الأرفف وجاء بلفائف أقمشة بيضاء شفيفة وأخرى سوداء، سدد عمى ثمنها وحملهما على كتفه.

ضاقت خطواته هذه المرة .. فى كفه استكانت كفى ..

سالنى: مارأيك، نمر على عمك حسانيني الماوردى نشترى الصندلية والمحلبية وبعض العطارة من المحلات التى تحيطة ..؟

ولم ينتظر إجابتى .. عرجنا إلى شارع ضيق .. أهاجت روائح المواد الحريفة أجهزتنا التنفسية .. خفت أن يمزق السُعال صدرى، فوضعت كفى عليه ..

- خذ .. اشرب.
- فى تجويف الفم دلقت كوز الماء.

عم حسانين الماوردى طويل .. عريض .. أبيض الوجه .. كيف ..؟

- كثير من النوبيين بيض الوجوه .. خاصة الكُشاف.

- الكُشاف ..؟
- أحفاد المماليك الذين فروا من مذبحة القلعة إلى النوبة.

فى جيب جلبابه أسقط زجاجات العطر التى خلط موادها العم حسانين وكذا لفائف العطاره .. قال وهو يبدل من وضع لفتى القماش من كتف إلى كتف .. ستصحب أمك وجدتك وعماتك إلى البلدة وتعود بعد أن تأخذ العزاء فى أبيك .. أعمامك محجوب وباشرى هناك سيكونان معك .. كن رجلاً كعهدنا بك، واعلم أن الشدائد تخلق الرجال.

وجه الشيخ عبد المقصود يطل علىّ .. يسرى الألم فى عظام أصابعى .. أصرخ آآه.

استرسل قائلاً: وشهرياً سوف نرسل المصاريف لأمك وأختيك حتى نجد لك وإخوتك عملاً، فلا تحمل هماً.

(سنة واحدة وأكمل حفظ القرآن كله، ويحتفل بذلك كل ناس النجع ويشهد بذلك عالمان من حفظة القرآن، ثم التحق بالمعهد الدينى)، قبل أن يبتلعنا الشارع الموصل لحارتنا وضع عمى لفتى الأقمشة على كتفى وهو يقول: سأنتظرك هنا .. ولو رأتنى الحريم سيهجمن علىَّ باكيات، ولن يتركننى .. اعط هذه الأشياء لعمتك بحرية وعد إلىَّ مسرعاً، فأعمامك فى الجمعية ينتظروننا، والمفروض أن نكون بينهم الآن لنتلقى العزاء.

وهو يشير إلى مبنى قديم قال: ها هو ذا مبنى الجمعية .. إعرفها جيداً، فستحل وأخوالك محل أبيكم فى القيام بالواجبات.

صعدنا الدرج .. قبل أن يدخل إلى مقر الجمعية دس يده فى جيبه .. أخرج منديله ووضعه فوق شفتيه وفتحتى أنفه .. نهنه باكياً .. رأونا فتصاعدت أصواتهم بالبكاء، أخذوا رأسه إلى رؤوسهم وجأروا بالبكاء كما الحريم.

- وحدوا الله واستغفروه.
- اطلبوا له الرحمة.

كفوا عن البكاء .. جلس الأعمام وراء منضدة مغطاه بقماش من الجوخ الأخضر، يتوسطهم أكبرهم . افسحوا لى مكاناً بينهم.

يتوالى مجىء الرجال .. ما أن يدخل أحدهم حتى يهب الأعمام واقفين، فأقف معهم. يظلوا واقفين حتى ينتهى الآتى من قراءة الفاتحة وكفاه مبسوطتان أمامه، يمسح بهما وجهه ثم يتقدم إلينا مواسياً .. يأخذ مكانه بين الجالسين .. هممت بالجلوس .. لكزنى عمى عباس فأدركت أنه يجب أن أظل واقفاً حتى تقدم له القرفه ثم السجائر .. اعتلى مقرئ مقعداً عالياً، أطفأ المدخنون لفائفهم.

بسم الله الرحمن الرحيم .. الرحمن – علم القرآن.

مصمص البعض شفاهه.

كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

مال برأسه على رأس الجالس بجواره وهمس متسائلاً: من هذا الصبي ..؟

(والله إن هذا الصبى كلَّ جسده وأنهك، يقف ويقعد ويقف، ويظل واقفاً حتى تقدم القرفة التى لا يشربها أحد، ورجال يجأرون

بالبكاء كمالحريم، وأنتم مرصوصون على مقاعدكم كالتماثيل، لا تتحرك إلا أعينكم فى محاجرها هرباً من الملل، وسفر طويل ينتظرنى فى قطار العذاب إلى الشلال، ثم إلى قريتى – قورته – فى النوبة، الشمالية .. أسافر إليها لأتسول العزاء فى أبي .. مسائل لوغاريتميه لا أفهمها ولا أريد .. إذ ما معنى أن أسأل الآخرين عزاء لا يهمهم أمره؟، موت وخراب ديار وتعذيب للذات.

صدق الله العظيم.

هب شابان من مقعديهما وراحا يلفان على القاعدين بالسجائر ..

- شكراً .. لا أدخن.
- قالها نفر قليل.

امتلأ صدرى بالدخان .. سعلت حتى انتفخت عروق رقبتى وامتلأت عيناى بالدموع ..

جاء ثالث يحمل صينية غطتها أكواب الشاى بالحليب .. شفتطه الأفواه فى تلذذ.

- الفاتحة على روح المتوفى.

انتشر الصمت إلا من هسيس الشفاه

- على أمواتنا وأموات المسلمين.

مسحت الأكف الوجوه، بينما تتمتم الشفاه .. آمين.

هب البعض واقفاً، فقام الأعمام واقفين .. قبل أن ينصرفوا يجيئون إلى المنضدة التى نجلس خلفها، يضعون فوقها أوراقاً مالية صغيرة تكور بها قبضاتهم .. من درج المكتب أخرج عمى عبدون كراسة ..

قال لى: اكتب الواجبات المدفوعة فى وفاة المرحوم فنجرى النور .. يلتقط الأوراق ويفردها .. يحصيها يهمس:

٢٥ قرشاً إبراهيم عقيد، ١٥ قرشاً عوض جاه الرسول، ٢٠ قرشاً دهب فضل، ٣٠ قرشاً سليمان جراد، ٥ إدريس نُجد.

فى عصر اليوم الثالث امتلأت غرف الجمعية والردهة بالرجال .. كلت أصابعى من كتابة الأرقام والأسماء.

١٥ سرى محمود، ٥ دهب عثمان، ١٠ محمود شامى امتلأت صفحات الكراسة فأكملت على ظهر الغلاف .. قبل قراءة الفاتحة، بعد صلاة العصر(*) دار شاب بطبق خوص كبير عليه حبات فوق سودانى وفصوص يوسفى على القاعدين.

قال لى عمى عبدون: اجمع.

٨٣,٠٥ جنيها.

صرها فى منديله ودسه فى جيبه .. فوق أسفلت الطريق تدحرجت خطانا .. فرض الصمت المهيب نفسه علينا فنكسنا الرؤوس .. تلقفنا الدرج الرطب .. تنحنح البعض .. التقطن دبيب الأقدام فأدركن مجيئنا .. علا بكاؤهن .. تحسست أقدامنا أرض الفسحة بين أكوام السواد المكدسة فوقها.

سأل عمى عبدون أخواته عمن سيسافر منهن مع أولاد المرحوم .. أجبن كلهن: أنا .. زام وزمجر ثم قال: لن يسافر منكن إلا ثلاث، قالت

(*) يُعرف اليوم الثالث من الوفاة عند النوبيين بيوم الفاتحة، حيث ينصرف بعض المعزين وأهل المتوفى من الجمعية الخيرية لأهل النوبة إلى بيت المتوفى بعد وقت العشاء ليقدموا العزاء لأهله من النساء، وبانتهاء اليوم الثالث ينتهى تقبل العزاء فى الجمعية.

عمتى حوشية: سوف أسافر على حسابى .. جدتى مسكة النور لم تنبس بحرف، لكنى أدركت من نظرتها انها قررت السفر. قبل أن تركب أمى سيارة الأجرة التفت حولها النسوة.. دسسن فى يدها نقوداً معدنية وورقية .. تحصيها بعينيها قبل أن تدسها فى زاويتها[٣].

* * *

كان قرص الشمس القانى يغطس وراء هامات الجبال هناك غرب الشلال ...

آآخ .. راسى تهشم.

ست عشرة ساعة وعجلات القطار تهرسه، والهواء المتسرب من النوافذ المحطمة الزجاج تسفع وجهى وتنفذ إلى عظمى.

آمى والعمات افترشن أرض الميناء .. بتْنا نُقطة فى محيط الوجوه السمراء ..

- غداً الأثنين .. ميعاد البوسته.

انحرفت البوسته نحو الشرق .. الدور الواطئة تتناثر فوق التلال الصغيرة، تطل علينا واجهاتها المطلية بالجير الأبيض، والرسومات الساذجة التى نقشتها أيادى الصغار، وفوق الأبواب الكبيرة المطلة دوماً على النهر لصقت الأطباق الكبيرة والصغيرة .. طبقان كبيران، أحدهما أبيض والآخر أزرق للزوج وللزوجة، وأطباق صغيرة بيضاء بعدد الأولاد .. والدروب تغطيها رمال فى لون الذهب وأحجار الجبال التى اصطلت

[٣] م..ظة من الجلد الخالص، تتدلى من الرقبة بحبل رفيع،من نفس نوع الجلد، مخصصة للنساء فقط حيث تدسها فى فتحة جلبابها.

بأشعة الشمس تتناثر فوق الدروب كنبت شيطانى غريب، وفى ظلال الجدران يتقرفص العجائز يلوكون أحاديث للمرة الألف، وصبية يلعبون الهندوكية أو السنديب، وكلاب مقعية تتدلى ألسنتها الطويلة الحمراء من شدة الحر .. كل شيء بلون الموت .. لا زرع .. لا نبت ولا ورقة شجرة خضراء، ولا زرزور شارد، ولا حتى نبات صبار .. لا شيء سوى وجوه تفترشها الكآبة، تجرى نحو الشاطئ كلما لمحوا البوسته آتيه من الشمال أو من الجنوب.

سألت جارى عن القرية التى سترسو عليها.

قال: دهميت، ثم سألنى عن قريتى ..

- قورته.
- لا .. قورته .. ربما نصلها فى منتصف الليل أو الفجر.
- ثم سرح بعينيه إلى البعيد، أضناه الشوق إلى أحبه غاب عنهم طويلاً، فوجد أصابعه تنقر على السور الحديدى الذى يسور سطح الباخرة .. تواءم النقر ودقات قدمه اليمنى .. انساب صوته رخيماً دافئاً..

أَمبْابْ كَنْدى وِيكْ كاَجِى

كَنْدى دِهِيدى وِيكْ كَاجِى

التقطت الآذان إيقاعه فبدأت الأقدام تزحف نحو مبعثها ..

أحاطته الأجساد التى وجدت نفسها تهتز على الأيقاع الذى جسدوه بخبطات أكفهم .. يرتفع صوت المطرب تدريجياً.

تارى وآريس تارى

مِنْدرَه نِجر شينبولو

شِبَاك سِته چُومبولو

هيه يا .. سابيدا نيللى يا.

تقافزت الأجساد مع إيقاعات الأكف، لكن صوتاً زاعقاً أخرس الجمع فعم الصمت.

بس يا إخوانا .. عيب .. بالبوسته أناس حزانى

زحفت الأقدام منسحبة ..

قال الملاح وعيناه الخرزيتان تجوبان شواطئ النجوع: سنرسو فى البريا .. الشيمة ضحلة جداً.

هتفت جدتى والعمات: الحمد الله.

لابد أن نجع البريا أقرب لنجعنا من نجع الشيمة، وإلا لماذا حمدت جدتى الله. ناور الملاح شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً حتى استطاع أن يوازى جسم الباخرة بموردة البريا .. كان ناسنا مبذورين على امتداد الشاطئ، ما أن التقطت أعين النساء أمى والعمات حتى انطلقن بالبكاء والعويل، وأخذن رؤوسهن إلى رؤوسهن وعددن ونهنهن، ثم تمنطقن بشيلانهن ورحن يتفافزن وهن يحركن عصى الجريد (الكَبىّ) – لا أعرف من أين أتين بها – فوق رؤوسهن وهن يرددن هيه . هيه .. هيه هيه، ثم يصرخن .. بيوو .. بيو

زعق فيهم عمى همد فضل وعوض إليش .. حرام عليكم يا شياطين حرام والله ما تصنعن .. صحيح أنكم ناقصات عقل ودين..

لم يُجد زعيق الرجال فتدخلت العجائز من النساء، أخذنهن ودخلن الدار .. دبت أقدامنا فوق رمال الدروب .. تجوس عيناى خلال الدور، والجبال الراسيات وراءها والتلال، وكلاب منهكة تقعى فى

ظلال الدور، مدلاة الألسنة .. تلهث .. تغرس نظراتها البليدة فى الرمال، فلا شجرة ولا نخلة ولا طير، سوى شريط ضيق من الأرض بطول النهر يغطيها نبات الكشرنجيج – اللوبيا - التى تتطلع إليها بقلق أعين النساء التى رمت بذورها خوفاً من غدر مياه النهر أن تفيض فجأة فتلتهمها، ليضيع تعبهن سدى.

أى حب يكمن فى جوانح هؤلاء الناس، وأى قوة تلك التى تجذبهم ليعيشوا هذه الظروف القاسية .. جدب وفقر وجوع .. صمت وصهد وشوك و .. شعرت بحسرة البول .. خفت أن تنفجر مثانتى .. أسررت بهواجسى لشاب قريب منى .. قال: تعال وسار بى نحو الجبل، وهناك تركنى قائلاً وهو يشير إلى أى مكان: هنا.

رحت أتلفت يمنه ويسرى

قال مؤكداً: هنا نقضى حاجاتنا.

بعد أن شربنا شاى الضحى توجهنا إلى الجامع .. كانت الأرائك متراصة بجوار بعضها، وقد فُرشت بالأكلمة والأبراش، جاء صبى بلفائف الشاى وقمع سكر وآخر بعلب الدخان والقرفة .. وبعد قليل سمعنا صوت المؤذن ينداح فى الفضاء .. الله أكبر .. الله أكبر ..

من البعيد بدت الركائب ترد من النجوع المجاورة .. الخميساب ... أمبو جواب، البريا، أفدينا، المحرقة غرب .. شغلت كل الأرائك والمقاعد .. دار الصبية عليهم بالدخان وأكواب الشاى .. تمطت سحب الدخان الزرقاء .. افترشت مساحات الفراغ فوق رؤوسهم.

فى الليل أكتملت استدارة القمر فخلع نوره الشفيف على المرائى لوناً فضياً، وهبت نسمات طرية تداعب الوجوه وتمسح عن الأبدان ضيقا عانته طوال النهار تحت وهج الشمس الحارقة.

فى عصر اليوم السابع جاء الصبية بمقطفين .. أحدهما خال وآخر ملئ بالحصى، وأجزاء القرآن الثلاثين .. حول صحن الجامع تناثر الرجال والصبية، فى الوسط وضعوا المقطف الفارغ، قام صبيان بتوزيع الحصى على الجالسين .. فى صوت واحد قرأوا الفاتحة على روح المتوفى، فقل هو الله أحد ثلاثاً، ثم بدأوا يقذفون الحصى فى المقطف الفارغ وهم يرددون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلما فرغوا من ذلك، وزع الصبية أجزاء القرآن على بعض الحاضرين ممن يجيدون القراءة.

صدق الله العظيم .. رددتها الشفاه فجرى الصبية إلى حجرة جانبية، وجاءوا بأطباق الفته المغطاه بالأرز الأبيض وأكوام اللحم المسلوق، تحلقوها فى مجموعات .. لقموا الأفواه هُبر اللحم الساخن.

امتلأت البطون فقاموا يدبون فوق الدروب إلى دارنا .. فى الطريق سمعت صبياً يهمس لآخر: لقد أكلت اللحم كله يا زربون يا ابن الكلب، فشخ ضبه وهو يقول: البادئ أظلم، ثم وهو يطوح راسه إلى الخلف .. اعمل حسابك أنك لن تذوقها بعد ذلك فى أى كرامة.

بلغا الدار، فخرجت أمى والعمات وجدتى مسكة النور .. أحاطهم الرجال .. تصاعد البكاء .. اختلطت الأصوات فى لحن جنائزى كريه.

* * *

فى الصباح الباكر قبل أن تخطو الأقدام فوق الدروب الرملية قمت من نومى .. ارتديت جلبابي بعد أن غسلته زوجة العم محجوب ..

فردته بأن مررت بظهر طبق صاج فوقه عدة مرات، وغطيت رأسى بطاقية منقوش حولها طيور تحلق فوق نخلة يتدلى من سباطاتها الرطب. أخذتنى أمى إلى حضنها. تشنجت أصابعها على كتفى .. اختلط بكاؤنا .. بللت دموعها صدرى .. خلصتنى النسوة بالكاد .. أحاط بموكبى الرجال .. تأخر الصبية للوراء .. سارت جدتى شايه ورائى .. تنحنى كل بضع خطوات لتجمع بقبضتها على حبات رمال وطأتها قدماى وتلقيها فى مقطف صغير بيسراها وهى تتمتم .. آديلا . آديلا .. إن شاء الله تعود لنا مرات ومرات .. ترجع لنا رجلاً فى المره القادمة لنزوجك من زينة بنات الكنوز.

عند الموردة دمعت عيناى لما احتضنتنا هامات الجبال والأطباق الصينى الملصقة أعلى الأبواب، وأعين الناس يطل منها الحب، وفى الرأس يتردد سؤال حائر: تُرى هل سأعود إليكم ثانية، وأملأ منكم العين؟

فى الشلال ركبت القطار المتجه إلى القاهرة .. خشونه المقعد الخشبى أوجع إليتى .. تهرس العجلات الحديدية رأسى .. أغمضت عينى وأسندت رأسى المفتتة إلى ظهر المقعد .. فوهة القبر تتسع وتتسع .. ابتلعت جثمان أبي .. أبي أصغر إخوته مات.

انسالت دموعى على وجهى .. أغرقته .. يتسلل السؤال إلى رأسى: لماذا لم يبق حتى يحقق لى ما أراد..؟

سألنى رجل كان يجلس بجوارى: ما لك يا ولدى ..؟

- مات أبى.

- البقاء لله .. وأمك حيه؟
- نعم.
- احمد ربك وقبل يدك وجهاً لظهر، وادع لها بطول العمر.
- لكن لماذا يموت أبي؟
- لكل أجل كتاب.
- إذا كان آخر الحياة موت، فلماذا كانت الحياة من البداية؟
- هذه إرادة الله.
- أريد تفسيراً لذلك.

اتسعت حدقتا عينيه وهو ينظرنى دهشا.

- يقول الله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون».
- وهل يقتضى ذلك موت المخلوق؟
- الخلود لا يكون إلا للخالق، وإلا لتشابه المخلوق فى صفة من صفات الخالق.

ثم هرب إلى الحقول اللا نهائية من خلال النوافذ المحطمة الزجاج.

تتداخل أصوات الباعة وتمتزج .. صارت عجينة من الصراخ .. خيار، رمان، بيبسى، عنبر، استك، أمشاط .. أمواس، فلايات، دقات القلم على ظهر لوحة التذاكر فى يد الكمسارى السمين، احتكاك العجلات الحديدية بالقضبان، اصطكاك العربات ببعضها، وزعيق الكمسارى السمين وسبابه للركاب زهقاً من حركاتهم السخيفة التى حفظها عن ظهر قلب .. يوقظ المتناومين بفظاظة .. قم يا زفت .. اصح يا بهيم .. هل معقول أن يهاجمكم النوم كلكم فى آن واحد؟

هات تذكرتك يا أخويا.

يتظاهر بأنه يبحث عنها في جيوبه .. في الحقيبة .. تحت الكراسي.

- رأيتك تركب من أسيوط.
- لأ من منقباد.
- يا ضلالي.
- احلف لك.
- مائة وثلاثون قرشاً.
- لكن قطعت من الشباك.
- سأرد لك المبلغ إذا وجدت التذكرة.
- قالها بلهجة الواثق من كذب الراكب.

قال جاري بلهفة من وجد شيئاً ظل يبحث عنه طويلاً: هذه هي المشكلة التي يجب أن تشغلنا وليس موضوع الموت والحياة.

تساءلت: أي مشكلة تقصد .. ؟

قال: الإنسان ..

وناولني كتاباً مفتوحاً على صفحتين قائلاً: أقرأ هاتين الصفحتين ..

تقافزت عيناي فوق سطورهما ..

إن مشكلة الدول النامية هي الإنسان الذي ينمو كنبت شيطاني .. لا توجيه ولا خلفية ثقافية تحدد له مساره مستقبلاً ولا ..

نظرته ملياً ..

قال مشجعاً: استمر

... ويتعاظم الشعور بالانتماء كلما بذلت الدولة جهداً لتضمن لمواطنيها الحد الأدنى لأسباب الحياة الكريمة .. الأمن، العلاج، العمل، السكن، المواصلات، التعليم. الـ .. إلخ.. ولا يتسنى لها ذلك إلا بانتهاج طريق التنمية الاقتصادية باستخدام الموارد المتاحة بالطريقة العلمية، وبوضع الخطط المحددة زمنياً.

ومن الأهمية بمكان أن يشعر الموطن بأهميته فى العملية الإنتاجية، وبالتالى فى الناتج القومي، وفى المقابل يجب أن يتقاضى أجراً يتناسب مع الجهد الذى يبذله، وبما يوفر له حياة طيبة، وأن يتطور هذا الدخل حتى يشعر أن مستواه المعيشى يتأثر - إيجاباً أو سلباً - بمساهمته فى العملية الإنتاجية، وبالتالى يجب ان يكون هناك نظام ثابت للثواب والعقاب يطبق على الجميع بلا استثناء.

ولو تحقق للدولة الزيادة الدائمة فى الإنتاج، وعملت على زيادة التصدير، بحيث يفوق فى قيمته ما يتم استيراده تحقق لها أن تكون سيدة قراراتها. وعليه فإنه يجب عليها أن تبنى استراتيجيتها منذ البداية على ضرورة الاكتفاء الذاتى لحاجاتها من السلع الضرورية حتى لا تتعرض للى ذراعيها.

كانت حدقتا عينى تتسعان، والدهشة تفترش صفحة جهى، .. تراءى لى وجه الشيخ عبد الله وقد افترشت بسمته الوضاءة صفحتى الكتاب، وصوته الودود يرن فى أذنى: أقرأوا كل شىء، حتى قراطيس اللب ..

لكن ما بال المواد الدراسية الكثيرة التى يحشون بها رؤوسنا جامدة، لا تطور فينا طريقة التفكير..؟!

وكأنه قرأ ما كان يدور فى رأسى قال: اقرأ كثيراً .. اذهب إلى سور الأزبكية واختر المواضيع التى تشعر أنها ستفيدك، والتى تجد أنك متشوق لمعرفة ما تتناوله .. المهم أن تكون لديك الرغبة فى القراءة والاستزاده.

قلت وأنا أومئ برأسي موافقاً: نعم.

ثم بعد فترة من الصمت قال وهو يشير إلى الكتاب: استمر.

غرقت عيناى مرة أخرى فى صفحات الكتاب.

«إن من أهم العوامل لخلق المواطن الجيد .. الواعى .. هى الحرية والديمقراطية والتعليم المعاصر من غير هذه العناصر الثلاثة، لا تستطيع أى دولة من خلق المواطن الصالح.

وبصراحة مطلقة نستطيع أن نقول ودون تحرج لو نظرنا إلى كل مواطنى العالم المتخلف فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لن تجد سبباً لتخلفها وتخلف شعوبها إلا غياب هذه العناصر التى ذكرت آنفاً .. يجئ الحاكم ويظل متشبثاً بكرسى الحكم لا يخلعه منه إلا الموت، وطوال مدة حكمه لا يكون له هم إلا ان يعد على مواطنيه أنفاسهم .. فمن زاد نفساً ألقى به فى غياهب سجونه المنتشره فى طول البلاد وعرضها أو سلط عليه زبانية الموت ليصفوه، ويبذل هؤلاء الحكام جهودهم لإبقاء مواطنيهم جهلاء .. أميين، حتى يسهل حكمهم، ولو أجرينا مقارنة بينهم وبين مواطنى العالم المتقدم نجد فرقاً شاسعاً فى كل شيء .. لماذا ..؟ لأنهم فى العالم المتقدم يسنطيعون التعبير عن رآيهم بكل الصدق، ذلك لأنهم يتمتعون بنعمة اختيار حكامهم الذين لا

يعملون إلا لمصلحة الوطن، معتمدين فى اختيارهم على خلفية علمية صحيحة.

كان قرص الشمس قد بدأ يبتعد نحو الغرب .. هبت النسمات الرقيقة فخففت عن النفوس زمتة الحر، وهمد زعيق الباعة..

قال: لم تخبرنى عن مدرستك.

قلت: حفيظة الألفية لتحفيظ القرآن .. سنة رابعة.

قال: عجباً .. ستتجه للازهر وغير مقتنع بالموت.. !؟

قلت: إنه يأتى بغتة ليخطف أحب الناس، ويغتال الآمال.

قال: الموت والحياة صنوان، لا يفترقان، فطالما وجدت الحياة لابد أن يتبعها الفناء.

أومأت برأسى موافقاً.

قال: ستدرك ذلك جيداً بعد القراءة الواعية.

قلت: وكأنك ضمنت أن أكون قارئاً جيداً مثلك.

قال: بل وأكثر.

وقبل أن يخطو إلى باب عربة القطار مدلى يده مصافحاً وهو يقول فى ثقة: سنلتقى ثانية، وأملانى عنوانه واسمه.

كان القطار يزحف إلى محطة مصر، أنزل الركاب الحقائب والمقاطف والسلال التى ازدحمت بها الأرفف الخشبية والسلكية .. كوموها فى الطرقات وفوق المقاعد .. نفضوا الغبار المتراكم فوق الرؤوس والوجوه ورموش الأعين .. الصدور والأكتاف ففعلت مثلهم ..

عمى عباس كان ينتظرنى على رصيف المحطة .. أخذ كفى فى كفه .. هرولت .. فى الميدان الواسع كانت المركبات تجرى كالريح ..

التزمنا الخطوط البيضاء فى العبور والإشارة الخضراء. قال: أصر جدك لما علم بمجيئك على أن تقيم عنده.

جدى .. عم أبي .. له نفس صفاته الجسمانية .. تفيض عيناه بالذكاء .. أسنانه – على الرغم من سنينه الثمانين؛ غير التى أسقطها من حسابه؛ بيضاء .. تتراص بجوار بعضها كصف لؤلؤ ثمين. تزوج من إمرأة تصغره كثيراً؛ بعد أن ماتت زوجته؛ ومن قبيلة غير قبيلته على غير العادة .. عرفت من كثرة ما كان يتردد على أبي أنه يعانى من ضيق ذات اليد لعدم توفيقه فى الاستمرار فى أى عمل، فقد أكلت السنون صحته، وسيدات البيوت يفضلن الشباب العفى .. يسكن فى حوارى بولاق مع أبناء جلدته من النوبيين والصعايده وأولاد البلد.

سألنى ونحن نعبر إشارة الإسعاف: هاه .. ما رأيك؟

قلت: أخاف أن أضيف إلى همه هما آخر.

قال: إن شاء الله نوفق فى تدبير عمل لك خلال يومين أو ثلاثة.

صعدنا الدرج حتى نهايته .. شقته الصغيرة فى مواجهة السطح .. كل شيء نظيف .. لامع ..

أخذنى إلى حضنه مهللاً: أهلا بحفيدى الغالى.

-

- هاه .. ما الأخبار؟
- زين .. أعمامى محجوب وخير وكل ناس النجع قاموا معنا بالواجب.
- وأمك .. إن شاء الله تكون راقت.

- الله معها.

قال عمى عباس: لا نريد أن نثقل عليك .. ذا النون سيمكث عندك يوم أو اثنين وعند أعمامه يومين حتى نجد له عملاً.

(آه .. سأكون عاله عليكم، أبيت يوما هنا ويوماً هناك كالمتسول الذى لا يعرف له مقراً .. رحمة الله عليك يا أبي .. كنت سقفنا الذى ظلّلنا ، وعزوتنا الذى حمانا).

قال جدى: ذا النون ولدى سيملأ علىّ الدنيا.

نزلت الكلمة على قلبي برداً وسلاماً ، لكن سرعان ما تردد السؤال داخلى .. كيف وأنت دائماً خالى شغل؟ والحياة صعبة. والبيت كالطاحونة الدائرة يحتاج لطحين.

جاءت صليحة حسين، زوجة جدى؛ بصينية عليها ثلاثة أرغفة وطبقين يتصاعد منهما البخار .. أكل عمى عباس لقمتين واعتذر لعدم شعوره بالجوع، ثم انصرف بعد أن شرب الشاى بالحليب .. ربت على كتفى وهو يقول لى: شد حيلك.

قال لى جدى: ستنام هنا فى الصالة على الكنبة .. هاه .. ما رأيك؟ ظللت اتقلب على جنبى طوال الليل .. القلق يملؤنى والأسئلة تتوارد إلى رأسي: هل سأكون حراً .. أنزل إلى الحارة وأصعد إلى الشقة وقتما أريد؟ وهل سيتسع صدر صليحة حسين لى؟ ومالها لم ترحب بي مثل جدى؟ آه .. أشعر أن الزمن سيتآكل وأكبر لأجد نفسى ذات يوم طاهياً او سباكاً أو سمكرياً أو .. فى الوقت الذى سيكون فيه زملائى من العلماء .. هكذا نحن النوبيين ما أن يموت عائل الأسرة حتى ينهـ ر

أفرادها ويتفرقون .. الأم وبناتها يسافرن إلى البلدة، ويبقى الأولاد فى المدينة ليعملوا بقروش زهيدة يرسلونها آخر كل شهر لهن ليعشن بها .. مساكين حتى العمل ليس لهم خبرة فيه، ذلك أن الخدمة فى البيوت لا يحتاج إلى خبرة، ولكن هل سكان مصر كلها يعانون الفقر مثلنا..؟

لا أعتقد، فليس كل الناس مثلنا، فنحن ننفرد بظروفنا القاسية، فقد كان لموقع قرانا الخاص حول النيل النوبي أثره فى غرق أراضينا الزراعية وتشتيت ذوينا بعد بناء خزان أسوان وتعليته.

ولماذا لم يستصلحوا لنا أرض زراعية فى الوديان والأخوار المنتشرة حول النهر؟ ألم يكن ذلك أقل ما كان يجب أن تقدمه حكومات الملك للنوبيين، تعويضاً لهم عن تضحياتهم من أجل شعب مصر؟

رأيي أننا السبب فى كل ما أصبحنا عليه، إما عن جهل، أو استهتار أو حسن نية لم تؤت ثمارها، أو غفلة أو عته، أو على أحسن تقدير كسل .. فالحقوق تؤخذ ولا تمنح، وحتى أكون صادقاً مع نفسى فجهلنا هو سبب غرقنا فى هذا الضياع، لأننا لو كنا متعلمين لطالبنا بحقوقنا حتى ننالها، وعموماً فإن الفرصة مازالت سانحة للمطالبة باستصلاح أراضى فى وادى العلاقى أو وادى السيالة وتوماس وعافية وبلانة.

يتعاظم السواد حولى والصمت، والنوم فر بعيداً .. أستجديه فتأبي علىّ، اتقلب على جنبى الآخر .. غداً سأنزل وابحث عن عمل أرتزق منه، وأرسل الفتات لأمى وأخواتى البنات.

آآه .. إلى أين ستأخذنى هذه الدنيا ..؟ ليت يومي كان قبل يومك..

استغفر الله العظيم .. لكن الموت فظيع .. فظيع.

أغمض عينى وأضع الوسادة فوق وجهى .. أدس كفى بين ساقى ..

صوت نقاط الماء المتسربة من الصنبور فى صمت الليل مطارق تدق رأسى، آآخ .. أتململ .. أتقلب .. أف .. وبعد ..؟

- وهل نحن ناقصين؟
- اسكتى .. أرجوك اسكتى .. الباب مفتوح.

آه .. تحققت مخاوفى .. لن يحتملنى أحد .. لا أعمام ولا أخوال ولا جد ولا .. يا رب .. رأسى ستنفجر .. أين أنت أيها النوم..؟

- قم وأغلق الباب.
- عيب.

لا والله يا جدى، ليتك تفعل حتى لا أسمع شيئاً، لأبقى على حبى لك .. من صباح غد إن شاء الله أسوح فى شوارع القاهرة .. أمش فى مناكبها وأبتغى الرزق فى كل بقعة منها .. لن أتحمل البقاء مع زوجك اللئيمة التى كنت أظنها ملاكاً لما كانت تجىء لزيارة أمى وتقضى اليوم فى ضيافتها ..

* * *

ما أن صاحت الديكة، وارتفع صوت المؤذن منادياً خلق الله الغارقين فى النوم لأن يستيقظوا لأداء الصلاة: حى الصلاااة: حى على

الفلااااح.. وأن ذلك خير من النوم؛ الذى كنا نصفه بأنه أحسن من كد الدوم؛ حتى وجدت عينىَّ تجو سان خلال الظلام .. أريد أن أقوم لكننى شعرت بأنى مكبل الأطراف .. أين أذهب الآن؟ لو طلع أول شعاع أتخلص من قيودى .. كل شىء حولى غريب .. الجدران، النوافذ، البلاطات المربعة الكبيرة .. رائحة الحمام العطن وحتى رائحة الصابونة التى غسلت بها يدى البارحة .. أحسست بيد غليظة تضغط على رقبتى .. أختنق .. تخرج عيناى من محجريهما .. تنتفخ عروقى .. أصرخ .. آآى.

هب منزعجاً .. جاءنى يجرى .. ضمنى إلى صدره مردداً : بسم الله الرحمن الرحيم ..

اتفل فى عبك واقرأ آية الكرسى.

تثاءبت صليحة حسن بصوت مسموع تمطعت ثم تقلبت على جنبها الآخر .. قام جدى وأشعل وابور الغاز ووضع عليه براد الشاى، تسرب البخار الأبيض من البزبور .. هاجمت أنفى رائحة الشاى.

سألنى: ملعقتان أم ثلاث..؟

- ثلاث.

انتشر الصمت .. لم تقطعه غير شفطات الشاى الساخن الممزوج بالحليب.

- كل تُوبيه مع الشاى.

هززت رأسى، ثم قلت: لم أتعود أن آكل شيئاً مع الشاى.

- فيما تفكر.

- فى الشغل.

- أى شغل؟
- سأذهب الآن لأبحث عنه.

سكن الحزن عينيه .. سرحتا بعيداً، ثم قال: لم نكن معدمين هناك .. الله يجازى كل من تسبب فى ذلك.

- من هم ..؟
- الحلب !؟
- الحلب.
- لو كانوا أصلحوا لنا أراض هناك لما جئنا إلى هنا.
- هون عليك.
- كان أمل أبيك أن يعلمك حتى النهاية، وها هو ذا يرحل فى عز شبابه، ويتركك صبياً لتواجه الحياة فى هذه السن وتتحمل أعباء أمك وأختيك مع أخويك، وأنا أكلت السنون عافيتى وترفض سيدات البيوت تشغيلى.

قلت وأنا أهم بالقيام: ربنا يعطيك الصحة والعافية وأبادول.

قال: الله معك يا ولدى .. الله يوفقك.

(سبحان الله .. كنت فى هذا الوقت أنزل درج بيتنا وأنا أدس القرش فى جيبى .. أجرى إلى أول الحارة لأنتظر حتى يكتمل عقدنا لنبدأ المسير إلى عابدين، حيث مدرسة العم لمعى، أما الآن فإلى أين؟.

لا من هدف سوى البحث عن عمل .. نعم نعم .. فالأعمام كلهم لا يملكون سوى كدهم وعرقهم الذى ينضح طوال النهار ليحصلوا فى النهاية على بضع جنيهات تـ يشهم بالكاد، ولكن لماذا لم أفكـ ر فى

العمل هناك .. فى قريتى..؟ لكن ماذا اعمل فيها..؟ إنها غارقة فى الموات .. لقد أكلتنا الحكومة وتركتنا للرمال والجبال والزواحف، والذى لا يعجبه يسف من الرمال، أو يخبط رأسه فى الجبال .. لقد تركتنا نتظلم .. نزعق .. نصرخ .. نكتب الشكاوى ونرسل البرقيات ولا مجيب ولا معين .. حتى لما وقف نائبنا فى البرلمان وعرض مشاكلنا أبدى الأعضاء إعجابهم بأسنانه البيضاء وسمرة وجهة وبلاغة أسلوبه، ثم لا شيء سوى تسجيل كلامه فى المضبطة.

الخطوات تترى .. وجدتنى أعبر كوبرى أبو العلاء من تحت أبراجه الحديدية المتقاطعة، مخلفاً وراءى البيوت القميئة ومحلات الكشرى والفسيخ والسمك المقلي والشحاذين والمجذوبين وبائعى البخت والبخور والنداغة وتذكرة داود التى تقضى على الدود ولاعبي الثلاث ورقات وبائعى الطراطير وتماثيل الجبس والطبل .. ها هو ذا الشارع الذى رأينا فيه العم عثمان قابعاً أمام أحد البنايات العالية .. أسير على مهل .. أتلفت يمنة ويسره .. ها هو ذات البيت، لكن أين الرجل؟ أنتظرت قليلاً حتى رأيته آتياً من بعيد بوجهه المكتنز المحروق وعينيه الذكيتين .. أخذنى إلى صدره .. قلت له: إننى أبحث عن عمل .. أبعد عنى وجهه ليمسح دموعاً فرت من عينيه .. أخذنى من يدى .. صعدنا درجاً لآمعاً .. ضغط على ذر .. فتح الباب عن صبى وردى الوجه، ذهبى الشعر ..صبى جميل، تبارك الخلاق، لم أر مثله فى حياتى .. بسط لى يده قائلاً: تعال نلعب سوياً .. نظرت إلى العم عثمان الذى سأله عن امه .. أجاب: فى الحمام، ثم جرنى من يدى قائلاً: تعال .. لا تخف .. ـ رت وراءه .. ياأه ..

ما هذه الأبهة .. صالة فسيحة تؤدى إلى أخرى اكبر منها، تناثرت فيها الآرائك والمقاعد والمناضد، والأبليكات المذهبة معلقة على الجدران، وثريات ضخمة تتدلى من الأسقف العالية ولوحات رائعة فوق الجدران، وابواب تتداخل فى بعضها.

قال الولد: انتظرنى هنا.

جرى إلى أحد الحجرات ثم جاء ببعض اللعب. قطار يجرى فوق قضبان دائرية .. قطار جديد غير مكسور النوافذ .. نظيف .. لامع .. وثير المقاعد، وملعب كرة يغطيةاللون الأخضر ولاعبون ينتشرون فى آرجائه، يحركهم الولد بمقبضين فى يديه.

(سبحان الله. إنه يحرك عالمه كيفما يشاء).

وما العجب فى ذلك؟

أتقدر أنت؟

نعم .. فقط آكل مما يأكل وأنام على فرش وثير وأسكن فى هذا الحى وأتعلم فى مدرسته وأروح وأجئ فى سيارة يقودها «شوفيير» لا ينطق إلا بقدر.

هزتنى يده وهو يسألنى: لماذا تقف هكذا؟ تعال .. امسك .. أدر الذراع، وأعطانى شيئاً مربعا، قائلاً: اضغط هنا.

من البعيد التقط أنفى رائحة عطر لم أشم مثله فى حياتى .. أجمل آلاف المرات من عطر بنت السودان، ومن الصندلية التى تدلك بها العروس جسدها ليلة عُرسها .. وقع الأقدام يقترب .. الله .. الوجه وردى، مستدير كما البدر، والشعر حوله كما الهلال يؤطره .. من هذه؟ حورية

من حوريات الجنة الوارد ذكرها فى سورة الواقعة؟ قال الشيخ عبد المقصود وهو يصف لنا الجنة .. فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ..كان الولد ياسين الجالس أمامى فى الفصل يُسَمِّع الربع، بعد أن عقد ذراعيه على صدره وقد راح أعلاه يهتز الى الأمام والى الوراء .. «وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاءً بما كانوا يعملون».

من هم الحور العين؟ سألت شيخى.

لو كنت رأيت هذه المرأة قبل حفظ الواقعة لما سألت هذا السؤال.

- من هذا ..؟

مسحتنى بعينيها وقد انقبضت ملامح وجهها، مطت شفتها السفلى قرفاً من رؤية جرو أجرب فى شقتها الأنيقة.

- ذا النون ابن عم عثمان.

اندفعت غاضبة: أخذتنى المفاجأة .. أسندت ظهرى الى جدار ناعم .. أملس، وكأنى تبولت فوق أرضية البهو أو لوثت الجدار، إذ أصيبت المرأة بسُعار الصراخ: لأ .. امش هناك .. امش، ثم راحت ترددها وهى تشير الى فتحة جانبية فى البهو.

على صراخها جاء العم عثمان منزعجاً تساءل فى وجل: خير يا ست هانم .. خير.

اتسعت حدقتا عينيها وازدادت مساحة البياض فيهما وهى تنظر إليه، ثم صرخت فى وجهه: ما هذا .. أين كنت، ومن أين جئت .. أهى وكالة أبيك .. تدخل وتخرج بدون إذن..؟

أحسست بنصال حادة تمزقنى، تقطعنى أشلاء، فجريت حيث أشارت .. لفنى دوار السلم الحلزونى الصدئ .. هاجمتنى روائح شى

اللحوم وابخرة التقالى وطنين الذباب المكتوم على صفائح القمامة المكشوفة، المتناثرة على درجات السلم المعدنى القذر .. اشعر بالقىء .. افرغ مصارينى الفارغة .. اجرى .. الف .. الف .. الف .. تلقفنى اسفلت الطريق .. اجرى .. ها هو ذا النهر .. اجرى بحذائه .. تراءت لى شواشى نخلتنا العجوز .. اجرى .. جدران دارنا العالية .. اجرى .. عجائز نجعنا يفترشن ظل جدرانه .. اقترب منهن .. تتسرب الراحة الى كيانى.

ياذا النون ولدى يا ذا النون .. تعال .. تعال.

إنه صوت أمى.. ينتشلنى من بحور الغم والحزن، فأهتف قائلا:

تعال الى ياامى .. تعال.

- ماذا بك ياذا النون ياولدى؟

- احتاجك الى جانبى ياامى .

تقوم .. تجرى الىّ ملهوفة .. تضمنى .. تدسنى فى صدرها

لماذا تبكى..؟

آآخ .. شعرت بدوار يلفنى ..استندت الى جدار ..

أخذنى من يدى .. اجلسنى على دكته. كفكف دمعى وهو يردد:

- لا .. لا .. الرجال لا يبكون .. هدئ من روعك.

نظرت الى وجهه، وإن كان مألوفاً لدى، لكنى لم أتذكره، وكأنه قرأ ما يدور فى رأسى قال: عمك حسين فاييس .. من توماس.

أشرق وجهى لدى نطقه بأسمه وقريته.

عمى حسين فاييس .. أبو يوسف .. زميلى فى كتّاب العم لمعى .. رأيته مرة لما ذهبت لبيتهم صباح أحد الأيام مع يوسف .. أحسست بألفة مع أمه وإخوته بمجرد أن دخلت بيتهم ..

- ولدنا من أى بلد ..؟
- قورته.

ارتسمت علامات الدهشة والتعجب على وجهه الأبيض المستدير .. ظننته جوربتيا لولا لهجته المصرية المتعثرة.

- هل تعرف أن بعض بطون قورته أقرباؤنا ..؟

تذكرت على الفور ما قالته جدتى مسكة النور ذات مساء بعيد عندما عرفت بسفرى الى عمتى فانا فى الإسكندرية.

- لا تنس زيارة أعمامك وعماتك فى الفرخة.

كركعت ضاحكاً وأنا أتساءل: الفرخة؟

- الحى اسمه الفرخة يا حمار.
- لم أسمع عن أعمام وعمات فى الاسكندرية سوى عمتى فانا، فمن هم يا ترى؟
- أحفاد جدك الأكبر كلوده الذى اضطر فى إحدى رحلاته التجارية أن ينزل فى قرية توماس، إذ سكنت الريح تماماً، وكان التعب قد استبد بجسد النوتى، فقال له جدك لا عليك .. فلنبت هنا، وما أن رسيت المركب بجوار الشط حتى مر عليهما شيخ كبير.
- أووه هسين كلوده .. سِكرً فى ..؟

وأخذهما معه الى داره حيث قضيا يومين، رأى خلالهما جدتك داريا فوقع فى أسرها .. تزوجها وأنجب منها البنين والبنات فكانت عائلة كلوده بالقسم والكنوز.

* * *

الشوارع هادئة .. لا تسمع فيها نأمه .. عاد الناس من أعمالهم ومدارسهم واختبأوا وراء الجدران هرباً من الهجير.

إلى اين ..؟ لأذهب الى عابدين .. أحب حواريها وأزقتها وشوارعها ومقاهيها وناسها وكل ما فيها .. جرجرت إليه الخطو ..مخترقاً شارع النيل أملأ عينى من ماء النهر الجارى دوماً نحو الشمال، ممتزجاً بغرينه البنى العفى .. تصدم عينى أسوار السلك المشدود حول الأشجار والخضرة المزروعة أمام بعض العوامات الرابضة على شاطئه، والبنايات العالية تسور الجانب الآخر، والترام يشق مجرى الشارع متكاسلاً .. ولكن لمن هذه العشة الفقيرة المبنية بجوار الماء مباشرة؟ وهذه الحصيرة اللامعة المفروشة بجوارها..؟ ظللت غير قليل أنظر إليها .. افترشت السور الحجرى، وأسندت وجهى بكفى وأنا أرنو إليها.

هل هناك من يسكنها؟ وكيف أقامها؟ هل يقييم فيها بمفرده أم معه عائلته..؟ هل عافت نفسه العيش بين الناس فجاء ليعيش وحده هنا؟ أم أن ضيق العيش أجبره على ذلك؟ .. وما هى إلا بضع ساعة حتى يخرج منها شيخ كبير .. يثقل كاهلة عبء السنين .. تغطى لحيته البيضاء الوقور وشاربه كل وجهه ... وقف مستقبلاً النهر، وظل يتطلع الى السماء حتى غربت الشمس، فرفع ذراعيه لأعلى، ووضع باطن كفيه على أذنيه وراح يؤذن بصوت جلى، حلو .. الله اكبر الله أكبر، وهو يتوجه مرة يميناً ومرة شمالاً حتى يصل صوته للمارين من الناس .. توضأ وشرب وصلى ركعتين وانتظر أن يأتيه أحد، ولما نفد صبره قام وأتى بالفرض وحده.

أى إصرار يتسلح به ذلك الشيخ الفانى؟! كم أتمنى أن أفعل مثله .. لكن هل استطيع؟ ولكن من سيسعى على أمى وأخواتى؟ خالى؟ لقد ذهب ولم يعد .. يجوب بلاد الدنيا على ظهر باخرة عملاقة .. كل الناس قاموا بواجب العزاء إلا هو .. فليذهب الى الجحيم .. يقولون إن الخال والد .. كلام وأعمامى أولاد أعمام لأبى، وكلهم على قد حالهم، يعملون بجنيهات معدودة، تغطى بالكاد حاجاتهم، وجدى أكلته السنون وهدت عافيته سيدات القصور، فلما كبر وذهبت عافيته لم يرحمنه .. حتى أمرأته لم ترع حرمة سنه وشيخوخته .. دائماً فى نقار معه.

آآى .. حاسب يا بربرى يا ابن الكلب.

(إيه .. ماذا..؟ الصوت يأتينى من ورائى) .. استدرت .. كانوا ثلاثة فى مثل سنى .. انحنى أحدهم على أصابع إحدى قدميه يدلكهما وهو يتأوه آى .. صباعى.

قال أحدهم وهو يربت على كتفى بيمينه، ويجس جيب بنطلونى الصغير بأصابع يسراه: معلش .. فقد هرست له أصابع قدمه .

لم يكن معى سوى ثلاثة قروش، قلت لنفس: اشترى رغيفاً وجبنا للعشاء بدلاً من ركوب الترام ... دسست أصابعى فى جيبى وأخرجت ثروتى أعرضها عليهم، سائلاً إياهم: كم تأخذون، وكم تتركون لى ..؟ نظر كبيرهم الى قروشى القليلة وضحك قائلاً: ليلتك فل يا أبو سمره.

استغرقنى ألق نوافذ العرض .. وقفت طويلاً أمام قطع اللحوم الوردية المرصوصة وراء الزجاج اللامع بعناية، وطرقعات أحذية النساء

موردات الوجوه، المؤطرة بشعورهن الذهبية وهن يتمخطرن عن يمينى وعن شمالى، ومن أمامى ومن ورائى .. سرت مخلوع الفؤاد .. هدوء رائع يلف الطرقات الواسعة وبنايات المعرض وحديقة الحرية والأندلس، ومن البعيد أطل علىّ الأسدان الرابضان دوماً عند مدخل الكوبرى .. تهيج المياه تحتى وتدور حول نفسها، يسقط قلبى هلعاً .. ينتفض كما عصفور صغير بلله المطر .. يتلقفنى ميدان الإسماعيلية الكبير .. الأوسع من نجعنا كله .. على يمينى مبنى الخارجية بزخارفه الإسلامية الرائعة .. أعبر الطريق الى الجامعة الأمريكية، ثم انحرف يميناً الى شارع قوله .. لا أملُّ السير فيه منذ أن عرفت اقدامى طريقها الى مدرسة حفيظة الألفية .. فيه لعبت الكرة الكاوتش، وعند التقائه بشارع قشلاق عابدين تكونت ذات يوم حلقة من تلاميذ السنة الثانية لما تحدانى الواد أبو سريع فى «ماتش» ملاكمة، فانتظرنا حتى انتهاء آخر حصة .. أصبحنا – أنا وهو – فى وسط الحلقة .. رحت اتقافز حوله .. لمست تردده فهجمت عليه بمجموعة لكمات بيمينى على خده وكتفيه، ثم «هوك» شمال أطاحت به أرضاً، دوت التصفيقات والصيحات .. هه .. هيه ..

– بسرعة أحاط بى مصطفى عبدون وطه دهب وعوض كتى ليصدوا عنى اعتداءً قرأوا نذرة فى أعين التلامذه بيض الوجوه، وصوت أبو سريع يسرسع فى فضاء الحلقة – لاعناً أبى وأب كل بريرى قعر حلة .. إ .. د .. يه ايام باتت تاريخاً ولن تعود ثانية ..

ولكن أين أصدقاؤك الذين جئت لتراهم .. عبده سكينة، وهمد عثمان وحسين زبيده .. آآه .. أكيد أنهم مشغولون فى مذاكرة

دروسهم، فلإمتحانات على الأبواب .. لماذا لا أذهب الى صديق القطار..؟ شارع الهادى .. جزيرة بدران .. لم أفكر طويلاً .. قفزت الى أول مركبة .. القللى .. النفق .. أول شبرا ..

- لو سمحت ..

تناول القصاصة .. تقافزت عيناه فوق الحروف القليلة .. أشار قائلاً: ثالث شارع يمين.

فى عينيه تواثبت الفرحة لما رآنى أمامه .. صاح .. أهلاً!! غير معقول اتفضل .. اتفضل .. اجلس.

صالة مربعة صغيرة .. الجدران رمادية باهته، لكن أثاثها ينم عن ذوق فنان .. الأرابيسك والتحف والمشغولات اليدوية والتماثيل المرمرية .. شعرت براحة تسرى فى كيانى ..

- شاى؟ أليس كذلك..؟ أنتم تحبون الشاى بالحليب.

ابتسمت له ممتناً .. جلس قبالتى .. تقافزت عيناى من تحفة الى أخرى تابعنى بعينين باسمتين، ثم سألنى: هل أعجبتك.

- كل شىء رائع..؟ خاصة التحف والتماثيل ومشغولات الآرابيسك.
- لاشك أن فى إهابك فنان لم ينطلق بعد.
- نعم ..؟

قام من مكانه متجها الى المكتبه .. التقط كتابين .. مد بهما يده نحوى قائلاً: أفضل أن تبدأ قراءاتك بالمنفلوطي لتقوم أسلوبك .. رحت أقلب صفحاتهما فرحاً.

- ماذا تعمل الآن..؟
- لم أعمل بعد.

- وكيف تقضى وقت فراغك؟
- وقتى كله فراغ.
- ألم نتفق على القراءة..؟ الكتاب أحسن صديق .. خصص للقراءة وقتاً كل يوم.

أومأت برأسى موافقاً وأنا انظر الى الكتابين.

قال: تستطيع أن تستعير غيرهما بعد أن تفرغ من قراءتهما.

بلعت بق الشاى ساخناً لأعبر له عن امتنانى، ولما امتدت أحبال الصمت بيننا تذكرت أبى الذى اختطفه الموت صغيراً، وامرأة جدى الشابة التى تندب حظها النكد الذى أوقعها فى زوج كركوبه انهى عمره الافتراضى قبل أن تولد، وأمى التى هربت بأخواتى الى بلدة قاحلة جرداء لرخص العيش فيها، وانا هنا أعزل، أواجه ظروفا عاتيه لا ترحم.. .. تعال يا أماه الى ولدك المحتاج لدفء حنانك .. لكلماتك الحلوه وبسمتك الودود.

- إيه .. أين ذهبت؟
- تشغلنى أمور كثيرة.
- أولها الاستقرار..؟
- ربما.
- هات ما عندك واعتبرنى أخاك.
- أبحث عن عمل يحفظ لى ماء الوجه.
- كل عمل شريف يحفظ ماء الوجه.
- حتى إلـ ..

- في الدول المتقدمة كل يعمل حسب حاجة المجتمع لعمله، وكل عمل محترم في نظر المجتمع، وكل شيء يخططون له حتى التعليم.
- نعم. كل شيء يحتاج لتخطيط.
- خاصة بناء الإنسان.

ثم قام واتجه الى المكتبة والتقط كتاباً ناولنيه قائلاً: ليتك تقرأ هذا الكتاب ..

التقطت عنوانه «الثورة الثقافية وحرب الأفيون».

نحيته جانباً وسألته: ما رأيك في الإنسان المصري، هل يحتاج لإعادة بناء؟

توجه بعينيه الى سقف الحجرة، وظل يفكر طويلاً، ساد خلاله الصمت بيننا حتى كاد يصيبني القلق، ثم قال:

الإنسان المصري صلب العود، عاطفي .. يستجيب بسرعة للمؤثرات الخارجية، وإذا ما توجهنا لبنائه فلن يستغرق ذلك زمناً طويلاً، المهم القدوة .. نموذج للسلوك المسئول الذي يحتذي به، إذا افتقده أصابه اليأس وتكون نتيجته السلب في كل تصرفاته.

- وماذا عن الاستعمار..؟
- لابد من التخلص منه.
- ومتى يكون ذلك ..؟
- لما نقضي على الفساد الداخلي، المكبل للحركات الوطنية.
- ومتى نقضي على الفساد؟
- ليس ذلك ببعيد.

- كيف عرفت؟
- الشعب كله غير راض عن السلطة.
- والجيش؟
- أول الرافضين.
- كيف؟

- نتائج حرب ٤٨ شحنت كل الشرفاء فى الجيش ضد القصر وحكومات الملك.

- والأحزاب ..؟
- موافقتهم مائعة، وكلهم يتزلفون للملك والإنجليز
- حتى الوفد..؟
- ماذا فعل بعد موت سعد؟
- يُحسب لع المطالبة بالغاء معاهدة ٣٦، ومجانية التعليم.
- وماذا عن مواقفه من القصر؟
- أنا ضد أى نظام لا يختاره الشعب بإرادته الحرة.

صاح فرحاً .. برأڤو يا ولد، لقد ملأنى حوارك بالأمل فى جيل المستقبل الذى آمل أن يتحقق على يديه ما لم نستطع أن نحققه.

- يكفيكم مواقفكم الوطنية ضد الاستعمار، وفساد الملك.
- وحتى الآن لم نتخلص من أحدهما.
- الأعمال العظيمة يستغرق تحقيقهاً زمنا طويلاً.
- من أين أتتك حكمة الشيوخ ..؟

قلت وأنا أشير إليه: من شيحى الجليل.

ضحك عالياً وهو يردد: ذكاء النوبيين وحكمة الفراعنة يا عكروت.

(عكروت ..؟! كلمة جدى – أبا دول – التى كان يشتمنا بها لما كنا نعاكسه ونجرى، فيهرول وراءنا رافعاً نبوته الذى لا يفارقه .. لكن ترى ما معناها .. ؟ يا ااه .. لقد غارت الكلمة فى تجاويف الذاكرة منذ رحيل جدى الأبدى، ولم يبعثها سوى سماعى لها الآن).

قمت مستأذناً، فلازمنى حتى باب الشقة .. كان الليل قد بدأ يتسلل إلى الكون ويلون الأشياء باللون الرمادى الغامق، وقبل أن تحل الظلمة وترتدى الأشياء الحلل السوداء أضيئت أنوار المصابيح المعلقة على قمم أعمدة النور المتراصة كعساكر مغلوبة على أمرها .. يسود الهدوء الشوارع ولا يعكر صفوه سوى أحتكاك عجلات الترامويات بقضبانها الحديدية الممتدة الى ما لا نهاية .. محطتان وأصبحت أمام شارع جركس، ما أن وطأت قدماى شارع أبو طالب حتى التف حولى صبية الحى.

- مرحب.
- أهلا ذا النون.
- حمد الله على السلامة.
- متى جئت من البلد؟
- سألنا عنك .. ما أخبارك ، وأين تعيش؟
- و ..

أحسست بدفء مشاعرهم .. كادت تطفر من عينى الدموع .. جريت الى مقهى أبو العلا شعيب متظاهراً بالتبول .. خفت أن أتهم

بالضعف فبقيت واقفاً أمام المبولة حتى أستجمع رباطة جأشي.

سألنى چورچ: وما هذا ..؟

واختطف الكتابين وقرأ عنوانيهما بصوت عال .. ما جدولين، العبرات .. لطفى المنفلوطى، ثم أطلق حنجرته بسؤال ضحك له الجميع .. أكيد هذا الرجل شبع من أكل الرمان .. أليس كذلك؟

قال عبد المعطى: أنت لا تفكر إلا فى كرشك.

قال چورچ وهو يمسح على بطنه: السيارة لا تمشى إلا بالبنزين .. ثم استطرد قائلاً: كذلك لم تقل لنا عن أخبارك.

قلت: مازلت أبحث عن عمل.

قال: والدارسة؟

- رفاهية لا أتطلع إليها.
- وطموحاتك
- سأربطها فى حجر والقيها فى النيل
- قل سأحتفظ بها الى أن تتحسن الظروف.
- وهل تتوقع أن تتحسن ..؟
- اعمل بالنهار وادرس بالليل.
- صاح عبد المعطى وهو يخبط على كتفه: عظيم يا چورچ .. عظيم. ثم اتجه ناحيتى وقال:
- هناك مدارس ليلية يمكنك أن تدرس بها حتى تحصل على التوجيهية ..

قلت محتداً: حاسب ألا تعلم أننى لا أقدر على سداد اشتراكاتها الشهرية، حتى لو كانت خمسين قرشاً ..؟

كأنه وقع فى حيص بيص .. أمسك ذقنه وسرح بفكره، فأسرع صابر الصعيدى قائلاً: هون عليك واتركها على الله .. هيا .. لا تضيعوا وقتاً ..

- الى أين ..؟

- إلى مكاننا المعتاد عند النهر.

وهناك مكثنا لساعة متأخرة من الليل، نحكى عن حبيباتنا السمراوات اللاتى رحنا نرسم ملامحهن بخيالاتنا المراهقة.

* * *

غسلت وجهى وقدمى وجلست على الكنبة فى «الفسحة»، وما أن بدأت فى قراءة الصفحة الأولى من «العبرات» حتى جاءتنى صليحة حسين بطعام العشاء، وضعته أمامى دون أن تنبس بكلمة واحدة، كما لو كانت تضع طعاماً لقطة أو لكلب فى شقتها.

قلت لها: سأنتظر جدى.

قالت: ربما يتأخر.

ولم تزد حرفاً .. بنت الفرطوس، ماذا تضمر فى نفسها .. ما هذا الصوت الآتى من المطبخ .. صوت أحتكاك آلتين حادتين .. سكينتين مثلاً .. يا نهار إسود .. ماذا ستفعل ..؟

أتحسس رقبتى لا .. لماذا لا أعدو هارباً من هذه المصيدة التى دخلتها برجلى؟

كل شيء فيها عفن .. غريب .. كئيب .. بلاط الفسحة الكالح الكبير .. فوط الوجه العطنة، الجدران الباهته المشققة، خطوط البق

المتراصة داخلها .. خيوط العنكبوت التى تتدلى من الأركان .. ظلام دورة المياه المشتركة بين جيران الدور الواحد، والغثيان الذى ينتابنى لما اضطر لقضاء حاجتى فيها، ولكن لماذا تجيء الآن بالمكنسة؟ .. الله الله. الغبار يثور ويهاجم أنفى وفمى بضراوة .. يا بنت الأبالسه .. أكح .. أتعمد السعال حتى تكف عن سخافاتها .. تضحك فى هبل وتقول بلكنتها المضحكة: إتأودى ألى كده .. كل يوم أنا أكنس بالليل.

أقول لها بالنوبية: فچركى كاليكا (أكنسى الصبح)

قالت: الصبح أشان الطبيه (الطبيخ)

أمسكت عن تناول الطعام ورحت أقرأ.

سألتنى: مش هتاكلى.

قلت: لم أتعود على تناول الطعام بالتراب.

قالت: إهنا فى البلد كنا بناكل الإيش بالرملة.

قلت: بالرملة؟! لابد أن ربنا خلقك بقونصة مثل الطيور، وكركعت ضاحكا

قالت وهى تقلب شفتها السفلى فى قرف: كمان ليكى نفس تضهكى.

الأفضل أن اهرب منها الى النوم .. سحبت على جسدى لحافاً قديماً وأغمضت عينى ووضعت الوسادة على رأسى، ومع ذلك طاردنى نشازها وهى تردد أغنية قديمة:

آى ولا فكمى ولا فنمى سمارة كـ..

فى الوقت الذى كان يصلنى فيه صوت عبد الوهاب من مذياع أصر صاحبه أن يسمعه لكل سكان الحارة.

وجرد حُسامك من غمِده فليس له بعد أن يُغمد

أين هو هذا الحسام لأضرب به عنق هذه الجاهلة التى أعلنت علىَّ حرب الغبار انتقاماً من جدى العجوز الذى دفن شبابها فى مقبرة شيخوخته .. قال لها أبوها: الزواج ليس عافية وأموال وفسح و .. الزواج سكن .. كل زوج يسكن للآخر.

ثارت فى وجهه قائلة: فين السكن دى؟ .. هنا فى هوارى بولاق .. هيلو هيلو ووصليهه.

تُعدد على شبابها الذى وأدته فى مقبرة جسد عجوز فانٍ، أكلت منه السنون وشربت .. كل ليلة تتمرغ على فراش افتقدت دفئه، لم تذق ذوبان الجسد فى الجسد .. لم تصرخ شبقاً وهو يعتصرها بين ذراعيه .. لم تُشبع وطراً، فتروح تتقلب على جمر فراشه البارد.

... لماذا لم يتزوج جدى من امرأة تناسب عمرها عمره؟ أكان لابد من هذه؟ سألت عمى عثمان النور .. قال: إنها ابنة خاله. تجاوزت العشرين ولم يتقدم لها أحد من أقارب أبيها فزوجها لجدك بعد أن ماتت جدتك بسنة واحدة.

- لماذا لم يزوجوها من أى شاب من القرية ..؟ أكان من الضرورى أن يتزوجها ابن عم لها أو عمة؟

- لم يعد أحد من الشباب يعيش فى القرية بعد أن أغرقت مياه الخزان كل الأراضى الزراعية بعد التعلية الثانية .. رحلوا الى الشمال فأكلتهم المدن الكبيرة .. رأوا نساءها البيض ففقدوا عقولهم، ولفظوا بنات أعمامهم.

- ولماذا اخترتم المدن الكبيرة ولم تستقروا فى اسوان وهى مدينة كبيرة ..؟

- لقد اختار ذلك جيل الآباء، وأعتقد أن سُبل العيش لم تكن متاحة فى اسوان كما هى الان.

ورد عليك	فل عليك
يا مجننى يا مجننى	يا مجننى بسحر عنيك
ورد عليّ	وفل عليك

(من لم يمت بالسيف مات بغيره..)

أمسكت امرأة جدى صليحة حسين عن العديد: على شبابها، وكذلك عن الكنس، لكن صوت مذياع الجار اللعين يغزو أذنى، ويصد فى ضراوة شبح النوم عن عينى .. أضع الوسادة فوق وجهى .. لا فائدة .. أين أذهب الآن؟ لماذا مت يا أبى وذهبت الى البعيد وتركتنى وحدى أواجه هذا العالم القذر .. امرأة جد لعينة، تكنس ليلاً لترجمنى بالتراب حتى لا أفكر فى المبيت عندها ثانية، فلا أكون قيداً على سلوكها وتصرفاتها، وامرأة ظننتها من نساء الجنة تحولت الى شيطان رجيم بمجرد أن رأتنى فى شقتها، إذ خافت أن ألوثها فراحت تصرخ فى وجهى: اخرج بره .. اخرج بره، وأعمام وأخوال استسلموا لما حل عليهم من بؤس وفاقه، فراحوا يمارسون حياتهم كما القطط الضالة فى حوارى وأزقة ضيقة معتمة .. فرحوا بملاليم التعويض التى القوها لهم بدلاً من دورهم وأراضيهم ونخيلهم وزروعهم .. تزوج بها من تزوج وشرب الآخرون بها خمراً وسكروا، وأقام بها البعض فى مواخير كلوت بك وشارع

محمـد علـى .. عـاملوهم كباشـوات ولمـا نفـدت نقـودهم ضـربوهم بالشلاليت، فراحوا يبحثون عن بنايات عالية فى الأحياء الراقية ليجلسوا أمامها ساعات النهار والليل لحراستها، والوقوف انتباهاً وتعظيم سلام لكل ساكن يهل عليهم، ويهرولون نحو سيدات يدلقن صدورهن أمامهن وهن يصرخن بأسمائهم .. وروح وتعال .. اطلع وانزل .. اذهب و .. كيف ارتضوا ذلك، وكان أجدادهم قد أعتلوا عروش مملكة نباتا .. كيف ..؟!

(لا تظلم أباءك وأجدادك الذين أجبروا على السعى وراء الرزق فى المدن الكبيرة .. هم الذين لم يتعلموا فى قراهم غير الزراعة.

- أما كان بإمكانهم استغلال مبالغ التعويض فى العمل بالتجارة ..؟
- كيف ولم تكن لديهم خبرة بالأسواق ولا بعادات الناس الاستهلاكية.
- من يبيع ويشترى فى أحيائنا الفقيرة؟ أليسوا هم الصعايدة الذين جاءوا معدمين من قراهم ..؟ لكنه الإصرار والعزيمة.)

*　　*　　*

أحث الخطى نحو الحى النظيف الهادئ الذى لا يفصله عن أزقتنا القابعة فى شركس وراء جراج «السنتكروفت» سوى النهر. احتوتنى الشوارع المؤطره بالأشجار التى تردنى ظلالها على الأسفلت الناعم.

لمحنـى أبـو يوسـف مـن بعيـد فهـب واقفـاً .. أقبـل علـىّ تسـبقه ابتسـامته تضـىء مـا بينـى وبينـه مـن مسـافة آخـذه فـى التأكـل .. طابـت نفسـى لدفـء مشاعره.

قال: كلمت الهانم عنك أمس .. فرحت كثيراً لما علمت أنك لم تعمل من قبل.

ثم بشىء من الأسي: معلهش ياوليدى .. شد حيلك.

صـعدنا الـدرج الرخـامى .. أسمـع دقـات قلبـى تـترى مـع خطـوى .. مـلأنـى الإحسـاس بالأسـى .. منعـت دمـوعى مـن أن تتسـال مـن عينـى، فتجمعت فيهما .. باتـت المرائـى غائمـة .. وقفنـا أمـام بـاب موصـد .. ضـغط على زر الجرس، فُتح عن فتاة ذات بياض شاهق وعينان فـى لـون البرسيم وشعر ذهبى قصير ..هل هى ڤينوس إلهة الجمال..؟

انحنى العم حسين قليلاً وهو يقول لها: صباح الخير سمو الأميرة.

قالت: انتظر قليلاً حتى تجئ مامى.

أرسـل عينـى لمداهمـا .. مـا هـذا..؟ أهـذه شـقة واحـدة أم قصـر؟ لا تصـل عينـاى لمـدى، ولا تصـطدم بحـوائط.. يـااه، وماكـل هـذه التماثيـل والتحف والثريات والسجاجيد والستائر؟!!

وظللت هكـذا أقلـب عينـى فيمـا حولنـا حتـى طلعـت علينـا امـرأة كما البدر فى ليلة تمامه، على الرغم من بوادر تجاعيد دقيقة، تجمعت على جانبى فمهـا الـوردى .. تتطلـع الىّ من أعلـى لأسـفل وهـى تسـأل العـم حسين: أهذا هو الذى حدثتنى عنه بالأمس؟

سبحان الله .. ينعم الأجانب بخير هـذا البلـد وأصحابها يعيشـون فيها كما الغرباء، ينحتون الصخر ليفوزوا فى النهاية بالفتات.

قال العم حسين: نعم .. هو يا أفندم.

- طيب حسين .. تشكرات ولد..

ما أن أغلق الباب وراءه حتى شعرت بأننى فأر وقع فى مصيدة لافكاك منها.

سألتنى وهى تنظر إلىّ مليا: ما اسمك ..؟ ثم قالت مستدركة: آه .. آه اسمك عثمان .. كل الخدم يليق لهم هذا الأسم .. عثمان.

قلت وقد علت الدهشة وجهى: لكنى لست بعثمان.

قالت غاضبة: وأنا قلت عثمان ولا راد لما أقول.

قلت: لكن هذا ليس اسمى، ولم يسمنى أبى بهذا الاسم.

احتدت قائلة: قلت لا راد لما أقول.

انشقت حوائط القصر فى هذه اللحظة عن رجل شديد بياض الوجه، شديد احمرار العينن كشيطان مارد، تحت أنفه شارب أشهب، لامع، انتصب، طرفاه لأعلى حتى كادا أن يخرقا عينيه، طويل، عريض كما الفلق .. يرتدى فوق منامته روباً حريرياً، مشجراً، وعلى رأسه طاقية طويلة، تتدلى لما دون رأسه الى أذنيه.

سألها: إيه سعادة دولت هانم..؟

قالت منزعجة: هذا ولد حمار .. أقول له اسمك عثمان فيرد علىَّ بكلام أغضبنى.

قال وهو ينظرنى بعينيه الحمراوين: اسمع ولد .. كلام دولت هانم أوامر .. ما فيه نقاش .. فاهم ولد ..؟ عليك أن تمول سمعاً وطاعة فقط.

(إيه ..؟ سمعاً وطاعة؟ هكذا بلا تفكير؟ لماذا..؟

هل تظنونى كلباً تصيحون عليه .. لاكى أو فوكس، فيجيئكم جريا .. بوزه فى الأرض وذيله يلعب فى الهواء؟)

استطال الصمت بيننا فانبسطت عضلات وجهها، وقالت: خلاص .. عثمان .. هيا .. تعال.

قلت محاولاً إثناءها: يا أف

قاطعتنى قائلة؛ وهى تناولنى صابونه يفوح منها عطر نفاذ؛: ادخل استحم .. اغسل شعرك جيداً، وادعك جسدك تماماً.

بنت الفرطوس .. تظننى حيواناً أجرب، أرادت أن تتخلص من أدرانه العالقة به قبل ان يرتاد بيتها ويقوم على خدمتها .. لكن – ربك والحق – شعرت بنشوة هائلة، ووجدت متعة عظيمة، لم أعشها من قبل وأنا تحت دش الماء الساخن، ادعك جسدى الهزيل الذى نتأت ضلوعه بلوفة بيضاء نظيفة وليست لوفه بنية خشنة من لحاء النخيل التى دعكت بها جسدى مراراً، فكانت كما لو كانت حجراً خشناً يدمى جلدى ..

تكوم بخار الماء الساخن فى فراغ الحمام .. كبس على أنفاسى .. شعرت بالاختناق .. سعلت حتى نزت من عينى الدموع .. تناهى الىَّ صوتها: اغلق الصنبور وافتح زجاج النافذة.

ارتديت ملابسى وخرجت فوجدتها تنتظرنى فى البهو .. مسحتنى بعينيها من أعلى لأسفل ثم قالت: كل يوم لازم وحتماً تأخذ حماماً ساخناً، قلت مؤكداً: لازم أفندم.

ثم قالت: تعال.

وجدتنى أقف أمام حوض صغير فى «الأوفيس» .. اعتليت مكعباً كبيراً من الخشب حتى أطول الصنبور العالى عن قامتى .. أمرتنى أن

أغسل الكئوس والأكواب والأطباق الصينى الصغيرة وهى تحذرنى من السهو أو الغفلة فأكسر كوباً أو كأساً ، فثمن الواحد منها لا يعادله راتبى عن شهر بأكمله.

(يا سلام .. الكوب بمرتب شهر كامل ..؟! سبحان الله طيب وكم يقدر دخلك ودخل بعلك؟ ألف جنية .. ألفان .. ثلاثة؟)

فتحت الصنبور .. تقاطر الماء الى الحوض .. تقاطرت فى رأسى ذكريات الأيام الخوالى.

... تراءى لى وجه أبى الذى حمصته شمس الجنوب القاسية .. يتندى من جبينه حبات عرق وهو واقف تحت أشعتها ، يقلب تربة أرضه بفأسه .. (آآه يا أبت .. رحلت قبل أن تقوى سيقان غرسك، .. النبت الضعيف تقتلعه الرياح الهوجاء، يصيره هشيماً..؟ كنت تتمنى لى أن أواصل دراستى وأتخرج فى الجامعة حتى لا ألقى مصيركم، لكنك تركتنى فى أول الطريق وذهبت، فأنى يكون لى ذلك الآن..؟ لو كنت تركياً أو البانيا لكانت لك أراض وقصور وحشم وخدم وأغاوات ورصيد كبير فى البنوك، ولضمنت بها مستقبلنا ، حتى بعد رحيلك .. لكنك مصرى. من أقصى البلاد المنسية دوماً فلم تتول أمر إقليم ولا ولاية مدينة لتنهب خزانتها فينتفخ كرشك ليكون دليل عزك، وتمشى متبختراً فى أبهة ، يحرسك القمشجية من يمينك ومن شمالك ومن أمامك ومن ورائك ، ويمنعون كل من تسول له نفسه الاقتراب من جنابك، لكنك لم تكن تركيا ، ولم تكن ممن جلبوك من البلاد البعيدة مع المماليك فتقفز مثلهم الى السلطة وتنأى عن المساءلة ، فتنهب كما تشاء من بيت المال، وتأمن ونأمن معك غدر الزمان لم تكن واحداً من هؤلاء

يا أبتى .. فكيف إذن تتحقق أمنيتك البسيطة بعد أن توسدت كدك وعرقك ورحلت؟!)

سالت الدموع من عينى .. دموع غزيرة لا أعرف أين كانت مختزنة .. ملأت كفى بالماء لأغسل وجهى، فتسرب الى أرضنا العطشى .. تشرب حتى ترتوى .. يكبر النخيل ويتطاول، وتنبت شجيرات سنط، لتنشر زهورها الصفراء أريجها عند الغروب، فتعبق الجو بعطرها الفواح .. يجيئونى رفقتى فنجرى نحو النخيل المثقل بعراجين البلح الأصفر المشرئبة الى قرص الشمس لتمتص لهيبه فيبدل البلح أرديته الصفراء بأخرى داكنة ليختزن حلاوته، نرميها بالأحجار فترمينا بالرطب .. نملأ سيالاتنا ونجرى، فرحين، زاعقين .. هيه .. تلتقطها أصابعنا واحدة واحدة ونلقيها فى أفواهنا .. ولما يفاجئنا الليل نلعب تحت ضوء القمر أول چاكود .. نتعب فنتحلق عبده فِكِة ونقول له: إحك .. كُما ج وى.

ينقل عينيه بين وجوهنا، ثم يستند الى جدار، ويضع ساقاً فوق ساق .. ويتنحنح، ثم يقول فى بطء شديد: كُما كُما اللّه.

يغتاظ الواد ميرغنى البوب فيفز واقفاً، ويحثوه بحفنة رمل وهو يزعق فيه: يا بن الكلب يازربون .. ماذا تظن نفسك؟

ثم يطلق ساقيه للريح.

يكركع فِكِه ضاحكاً، فتضىء أسنانه اللؤلؤية صفحة وجهه الغامق الغطيس وهو يردد: ولماذا تجرى يا هنو تُصدْ؟ ثم يبدأ فى الحكى. يتميز عنا فى الحفظ عن الجد ات، فيظل يلضم الحكاية فى الحكاية ونحن من حولة كالأصنام، نسمع فقط .. لا نتحرك ولا نصدر صوتاً، ونظل هكذا حتى نفاجأ بالظلمة تحاصرنا، بعد أن تكون

السماء قد التهمت قرص القمر الفضى وابتلعته، فتأتينا من بين الدور أصوات أمهاتنا محمولة على أجنحة الفضاء، مختلطة بالخوف والارتعاب .. عوااااض .. ذاالنوووون.

فنهب واقفين ونفر كما الجراد نحو دورنا القابعة عند أقدام الجبل.

- ألم تنته بعد..؟ اعمل لك همه.

بنت الفرطوس لن تتركنى لحالى .. هاه .. الفرطوس .. يااااه .. أمساك الله بالخير يا شيخ عبد الله .. كلمتك المفضلة التى كنت تعاقب بها الكسالى منا .. تأبى نفسك الطيبة التلفظ بغيرها، أو استخدام يدك أو العصا فى العقاب .. آه لو تعلم ما حل بتلميذك الغلبان .. لقد بات يخدم فى بيوت الأجانب بدلاً من أن يشق طريقه الى الجامعة .. لقد قرأت يا سيدنا كل ما كانت تحتويه أكياس اللب الذى كنت أشتريه ولفائف الجبن والحلوى .. حشوت رأسى بما وجدته فيها من معلومات فصارت تتبعنى وتؤرقنى، فلماذا نصحتنى بذلك؟ ألم يكن من الأفضل أن تتركنى لكى أنمو كالحمار .. أكد نهاراً وأخمد بالليل.

- لا .. لا يا ولد .. بقدر استفادتك من القراءة تكون نفسك.

يا ولد يا عثمان.

وبعدها فى بنت الفرطوس هذه..؟

يا ولد.

ينعل أبوكى وأبو الخزان وأبو الملك وأبو الإنجليز وأبو صدقى وأبو كل من كان سبباً فى إتعاسنا وشقائنا.

يا عثمان .. يا ولد.

قال لى جدى ذات يوم وأنا أسوق اتانه الى الدار: كنا نستأجر المماليك الفارين الى قرانا من مذبحة القلعة ليعملوا فى الأرض ببطونهم.

قلت متعجباً: ببطونهم ..!

قال: يعملون فى الأرض طوال النهار .. يقلبون التربة ويشقون الجداول ويبنون البتون ويبذرون البذور مقابل إطعامهم وإيوائهم .. (أكيد .. أكيد كان من بينهم أحد آبائك أيتها الخنزيرة.)

قال جدى: كنت لا أحملهم فوق طاقاتهم، فيكفيهم ما لا قوة فى القلعة وفى الطريق من تعب وعنت وجوع وعطش.

(ليتك أثقلت يا جدى؛ فربما كانوا قد قضوا تحت شمسنا الحارة، فترحل نساؤهم وأطفالهم عن البلاد .. آه لو كنت فعلت فربما كنت أعفيتنى وإخوتى من العمل عند من هن على شاكلة هذه الخنزيرة).

صاحت: ألم تسمعنى ..؟ اعمل لى قهوة

قلت: قهوة ..؟ لا أعرف.

قالت: ماذا ..؟ لا تعرف..؟!

قلت: لم أعمل قهوة من قبل.

تناولت «الكنكة» غاضبة وملأتها ماءً من الصنبور وقالت: تعال.

وقفت بجوارها .. قالت: اقترب لتتعلم .. ملأت رائحة جسدها الأبيض الط، ى أنفى .. صبت القهوة .. احتوت كذ،ها الفنجان .. قالت لى وهى تدلف نحو البهو:

تعال ورائى.

أوجست خيفة .. ماذا تريد هذه المرأة؟ الأبواب مغلّقة والستائر مسدلة ولا صوت لأحد .. هل سيكون مصيرى السجن فى كلا الحالتين. الرفض أو القبول .. أين الرجل العثمانى .. أين ذهب؟ اضطرب قلبى .. أقدم رجلاً وأؤخر أخرى .. أرنو الى الباب، أرجو أن يفتح أو حتى أن يدق الجرس أى شخص .. أى بائع .. أى .. كالمنوم سرت وراءها .. دخلت حجرة نومها .. قالت وهى تشير الى الأرض: اجلس متقرفصا، ثم جلست هى على حافة السرير ترتشف قهوتها بتمهل، ثم قالت وهى تنحى الفنجان جانبا: أريدك أن تكبسنى. على وجهى ارتسمت علامات الاستفهام .. نامت على بطنها وهى تقول: هيا .. دوس على ظهرى ورجلى.

أقف كما المصلوب وقد تحجرت عيناى وشل عقلى.

زعقت .. تحرك.

آلياً تحركت قدماى .. وضعت كفى على ظهرها .. إلى جسدى سرت ليونة جسدها. حلاوته، سخونته، طراوته .. أحسست بشىء يتحرك بين فخذى لما ضغطت أصابعى على لحم ظهرها الأبيض، الطرى .. تأوهت، فاشتعلت أذناى.

قالت: الله .. جميل .. تحت

استقرت كفى على تبه إليتيها.

اضغط .. أيوه .. هنا .. هنا.

(ثم ماذا ..؟ ما هى النهاية أيتها المرأة ..؟ ماذا تقصدين من هذه اللعبة المعينة؟)

رن ن ن ن

الحمد لله .. يا ما انت كريم يا رب

قبل أن تنطلق رجلاى نحو الباب هرباً سمعتها تقول: افتح لسيدك الصغير.

تغير وجهى غضباً وأمتلأ صدرى غيظاً وحنقاً وأنا أجرجر خطوى نحو الباب، فتحته، طالعنى وجه يشبه الدمى الحلوة .. الخدان أحمران، والعينان فى لون السماء .. سألنى وقدماه تجريان نحو الداخل.

- من أنت ..؟
- ذا النون.
- الخادم الجديد ..؟
- الى حضنها أخذته. قبلته وهى تردد: اتأخرت ليه يا حمار؟

نظر إلى ساعته .. قال: دقيقتان فقط.

قالت وهى تمسح على شعره الحريرى: شغلتنى عليك، ثم أمرتنى قائلة: هيا .. روح مع سيدك واخلع له جزمته، وساعده فى تغيير ملابسه.

أى مهانة كان يخبئها لى القدر؟ لم أكن أعلم كم العفونة المختزنة فى رؤوس هذه الطبقة إلا الآن. لابد من محقهم ..

نعم لابد، ولكن كيف؟

تُرى لو لم تكن مياه الخزان أغرقت أراضينا وزراعاتنا، أكنت سأضطر أن أعيش هذه اللحظات العصيبة، هل كنت سأضطر لتحمل هذه المهانة؟ وهل يعلم شاعرنا الذى قال فى إحدى قصائده: -

سنضحى بأمسنا وأراضينا

وما فوقها وبالذكريات

سنضحى بالكل يا أيها الخزان

إلا الغد الكريم السمات

سنضحى إن كنت للشعب

فإنا لا نكره التضحيات(*)

إن تضحياته وتضحيات ناسه كلهم آلت لحفنة قذرة التهمت كل الأراضى الجديدة والمصانع الجديدة فأتخمت، وأصبنا نحن بالفقر والأنيميا ، ترى ماذا نكتب الآن فى أبياتك الجديدة ؟

ابن الكلب يسألنى: أنت الخادم الجديد .. ؟

وللأسف هو الواقع، ولا استطيع أن أجيب بالنفى، ولا أستطيع أن أقول له إننى وناسى سبب ما أنت فيه من نعيم، فربما ردنى قائلاً: امنع عنا ما تستطيع أن تمنعه، فماذا أفعل وقتذاك؟

هذا الواقع الأليم لابد من تغييره .. لابد .. بأى شكل.

- إيه فيم تفكر..؟ هيا إخلع لى حذائى
- لماذا لا أمسك قدمه وأظل ألويها حتى أكسرها؟

والله لولا خوفى من أن يرموا بى فى غياهب السجن مع الحرامية والقتلة لفعلت.

- هيا .. ماذا بك؟ يبدو أنك كسول ولكع.
- وأنت ألا تستطيع أن تخلع حذاءك..؟ هل تحتاج فعلاً لمن يساعدك على خلعه؟

نظر الىّ مشدوها ثم قال: كل الخدم الذين سبقوك كانوا يخلعون لى حذائى دون أن ينطقوا بحرف.

(*) من قصيدة الطوفان للشاعر الراحل عبد الدايم طه.

- أما أنا فلا.

استشف غضباً من عينى .. امتلأ خوفاً فانحنى يحل رباط حذائه وينضيهما عن قدميه، ثم قال متسائلاً: تعرف تلعب؟

- ألعب ..؟

- نعم .. تاكسى وحنطور.

- لم أركبهما فى حياتى.

- سأعلمك .. أنت تضع يديك وركبتيك على الأرض، وأنا أقف بعيداً، وأزعق عليك قائلاً: تاكسى. تاكسى.

فتأتنى مسرعاً، فأمتطى أنا ظهرك لتوصلنى الى آخر الصالة.

قلت: تمام، ثم تنحنى أنت وأنا أزعق عليك: تاكسى .. تاكسى، ثم امتطى ظهرك لتوصلنى بدورك الى الجهة الأخرى من الصالة.

اتسعت حدقتا عينيه، وارتفع حاجباه دهشاً، ثم سألنى مستنكراً:

وهل يركب الخادم سيده؟!!

هتفت أعماقى: يا بن الكاااالب .. خادم وسيد؟! طيب ..لابد أن أريك، وأضع مناخيرك فى الأرض.

قلت: أصول اللعب.

أطرق مفكراً ثم قال: موافق.

قلت: وطى.

وضعت رجلى على ظهره، وجلست على مؤخرته وأنا ازعق شى يا حمار.

يا عثمان . يا هباب.

جاءنى صوتها من بعيد زاعقاً .. وجدتنى أمسح وجهى بكفى ثم أنظر فيها بحثاً عن الهباب .. اللبؤة بنت اللئام .. تسب أصحاب البلاد .. لكن لم العجب وقد رضينا بالذل والمهانة منذ الأزل ..؟ لم نثر ولم نقم بفعل إيجابي واحد يضمن حقوقنا. لم نفعل شيئاً لنجبر الحكومة على إقامة مشاريع زراعية أو صناعية فى قرانا لاستيعاب الأيدى العاملة التى باتت عاطلة فاضطرت الى الرحيل. لماذا أسرعنا بالسفر الى مصر المدينة ومدن الشمال الأخرى ..؟

ولماذا العمل لدى هؤلاء الكلاب؟

يا ولد .. يا عثمااان

- رد .. على ماما

ينعل أبوك لأبو ماما وأنت عامل مثل العروسة اللعبة.

ما أن رأتنى أمامها حتى قالت: هيا .. اغسل يديك واذهب الى الأوفيس.

رن جرس الباب رنيناً متواصلاً .. جريت لأفتحه، وجدته أمامى .. الرجل العثمانى، ذا اللغد الأحمر فى لون طربوشه الطويل .. دفعنى بسن عصاه وهو يزعق كملتات: لماذا لم تسرع بفتح الباب؟ هل لابد أن أرن الجرس مرات ومرات يا حمار حتى تفتح؟!

(حمار .. حمار يا اولاد الزنا .. يا لمامة العالم..؟)

جاءت مهرولة على زعيقة .. سألته من منخارها: إيه باشا

لماذا تزعق وتصرخ هكذا ..؟

أشار نحوى بعصاته وهو يقول:

علمى هذا أن يسرع ويفتح الباب قبل أن أدق الجرس.

قالت بهدوء: بدون زعيق سعادة الباشا .. أنا هنا الآمره .. أنا بس ولا أحد غيرى سعادة باشا .. فاهم ..؟

قال: إيه رايك دولت هانم فى السفر الى العزبة لنقضى فيها يومين.

(إيه.. هى فقط التى تصدر الأوامر؟ وطبعاً رضيت أيها الحائط بذلك)

أوجست المرأة خيفة .. فسألته: وهل القصر يستغنى عن خدماتك فى هذا الوقت؟

(القصر ..؟ وما علاقة هذا الهلف بالقصر؟ آآه .. الملك يستعين بالأجانب، فهو لا يثق فى المصريين،)

قال فى ضيق: مولانا سيذهب غداً الى الصيد.

سألته مندهشة: ألن يأخذك معه هذه المرة ..؟

قال: دولت هانم .. مولانا حر، يأخذ من يشاء ويترك من يشاء بغير حساب.

أومأت برأسها وهى ترمقه بعينيها، غير مصدقة حرفاً مما قال .. لابد أن فى الأمر شىء يخفيه عنها.

ثم أردف الباشا قائلاً: من فضلك دولت هانم نبهى على الخدم يجهزوا الشنط، وأنا سأنبه على السائق يجهز «الأتومبيلات».

قالت: اطمئن خاصة وأننا ربما لا ننام اليوم لأن كل الباشوات سيسهرون عندنا.

قال: إن شاء الله يكونوا الطباخين جهزوا كل شيء والسفرجية يكونوا اشتروا المزات.

(طباخين ..؟! كذا طباخ وكذا سفرجى لخدمة ثلاثة أو أربعة أشخاص؟! كنا أيام عزنا نلتف حول طبليتنا متقرفصين .. أنا وأمى وأبى وأخوتى لنأكل كلنا من طبق الويكة أو الچاكود، ولم أكن أعرف أن أبي كان يلبس طرطوراً ليطهى أشهى أطعمة، لم أسمع حتى عن أسمائها إلا الساعة .. شوربة كونسوميه، وسبانخ بالكالينولى، وخرشوف باللحم المفروم واسكالوب بانيه واسكالوب ناتير وفواتح شهية .. «جمبرى بالمايونيز وأوردرف» وحلويات شرقية وكريم كراميل وأم على .. ما كل هذا أيها المسعورون، والله ولا الحيوانات المجتره).

قالت تأمرنى: هيا يا عثمان .. انزل المطبخ وحضر الطعام مع السفرجية.

رحت أتلفت يمنة ويسره .. لم أر غير حوائط مصمته ولم تلتقط عيناى أى هوة فى أرضية الشقة.

رأت حيرتى فزعقت كملتاثة: تعال هنا ..

وأشارت الى سلم خشبى بلون الجوز يحفه درابزين معدنى أصفر لامع، نزلته فوجدت نفسى بين ترابيزات معدنية ضخمة مزودة بأحواض وصنابير وفى الأركان ثلاجات كبيرة وعلى الحوائط أفران صغيرة يحتفظ فيها بالأطعمة الساخنة لحين وضعها على المائدة، وثلاثة رجال يلبس كبيرهم طاقية بيضاء طويله .. أطول من طاقيتى الأخيرين.

- سلام عليكم.

ردوا على تحيتى بتحية كأنها استفسار عن هويتى ..

قلت: اسمى ذا النون.

قال رئيسهم ضاحكاً: صاحب الحوت؟ وهل ظننت أن مطبخنا هو المحيط ..؟ ثم أزال بسرعة ابتسامته، وزم شفتيه وهو يقول: هيا أيها الشاب اليافع – ما رأيك فى اليافع هذه؟ - انقل هذه الصحاف الى المصعد هناك.

قلت متعجباً: مصعد؟

قال صاحب الطرطور الأقل ارتفاعاً وهو يشير الى ركن قصى: هناك .. فقط عليك أن تنقل إليه الصحاف، ثم تضغط على زر الجرس المثبت على يمينه.

قلت: ومن سينقلها الى المائدة؟

قال: لا عليك، فهناك ثلاثة سفرجية سيتولون أمرها.

قال رئيسهم: الهمة يا ذا النون .. هيا ..

ثم التفت الى مساعديه وقال: اللحمة جاهزة .. ابدأوا بالشى.

تساءلت: حفل ..؟

قال: كل ليلة حفل.

- كل ليلة ؟!

- وماذا وراءهم .. الخدم والطهاة موجودون، والنقود أكثر من الأرز، وزبائنهم مستعدون للسهر والشرب كل ليلة حتى الصباح.

عثمان .. يا عثمان.

كان الصوت آتياً من الطابق الأعلى، لكنه مختلف عن صوت المرأة المغرورة والرجل التركى.

يا عثمان.

من ..؟

تعال بسرعة.

أكلت قدماى الدرج الخشبى .. وجدتنى فى «الأوفيس» أمام ثلاثة رجال من ذوى البشرة البنية ، ما أن رأونى حتى انفرجت أساريرهم.

وتبسمت شفاههم.

- أهلين ابن العم.
- مرحباً.
- من أى البلاد ..؟
- قورته.
- أهلين.
- بالطبع ليس اسمك عثمان، فهذه المرأة لا تعرف لنا غير هذا الاسم، فما اسمك الحقيقى ..؟
- ذا النون، وأنتم من أى البلاد؟

قال أصغرهم: أنا اسمى حمد ، من كلابشة ، والريس دهب من دابود ، والريس كُباره من أبريم.

- وأين كنتم، لقد جئت هنا منذ الصباح.

قال الريس كباره: نجىء متأخرين لإعداد الموائد لوجبة الغذاء ، وتقديمه ، ثم الاستعداد بعد ذلك لوجبة العشاء .. أما فى الليالي التى تكهن فيها حفلات؛ وما أكثرها ؛ نستمر فى العمل حتى منتصف الليل.

علمت أن الحفلات مستمرة.

آآه .. نى إكى ويترو ..؟ (من أخبرك .؟)

قال الريس دهب: تذكروا أن كُباره من أبريم.

قال كباره: يبدو أننى سأضطر لتعلم اللهجة الكنزية.

فقال الريس دهب: ونزوجك إحدى بناتنا.

احتد كباره وزعق قائلاً: لا .. كله إلا هذا .. أتريد أن توصمنى بالعار؟

وانطلقت ضحكاتهم مجلجلة صاخبة، وما أن هدأت عاصفة الضحك حتى أمال حمد رأسه نحو رأس كباره وقال فى هدوء شديد: الكنوز أسيادكم، فنحن أصحاب البلاد الحقيقيون.

ضحك كُباره ساخراً وقال: يقولون إنكم عرب، جئتم من الصحراء، أما نحن فقد نبتنا هنا منذ الأزل.

قال الريس دهب: كفاكم نعرات جاهلية.

قال حمد: إنها مجرد دعابات يا ريس، ولكن المشكلة فى هؤلاء البيض الذين ينظرون إلينا من علٍ، ويجهلون أصولنا، حتى فقراؤهم يعيروننا بسواد وجوهنا ..

بالأمس كنت أزور أختى فى إمبابه، وبينما كنت أسير فى إحدى حاراتها فوجئت ببعض الصبية يخطفون طربوشى، ثم راحوا يتقازفونه فيما بينهم وأنا حائر بينهم .. أجرى نحو هذا وذاك وهم سادرون فى غيهم، ونساؤهم ذوات اللحم الأبيض والأرداف الثقيلة يرمين شباكهن حول شبابنا حتى يقعوا فى احبالهن، وبعد أن يقضين منهم أوطارهن ويمصمصن لحومهم ويستولين على مدخراتهم يلقين عظامهم للكلاب.

قال كباره: لكنهم لم يجبروننا على ترك بلادنا والمجىء الى بلادهم.

- ومن أين نكسب قوتنا بعد أن أغرقوا أراضينا ، وأهملونا؟.
- حتماً كانوا سيقيمون لنا مشاريع زراعية بدلاً من أراضينا التى أغرقتها مياه الخزان.
- ولماذا لم يقيمونها لمن بقى هناك؟

ران الصمت للحظات ثم قال دهب: لقد أخطأنا فى حق أنفسنا لأننا لم نكن جادين فى مطالبة الحكومة بتعويضنا عن أراضينا الغارقة بأراض مثلها ، و

قلت مقاطعاً : الحكومة لم تقابل تضحياتنا إلا بالجحود والتجاهل، وفى اعتقادى أن الحقوق تؤخذ ولا تمنح.

تساءلوا : كيف؟

قلت: لا تنزعجوا هكذا ، فليس من طابعنا العنف، بل سنلجأ للقنوات الشرعية ، ثم نلج طرقاً أخرى مثل الإضراب والاعتصام إذا لم يُلتفت لمطالبنا.

قالوا : كلام معقول، واعتقد أن مثل هذه الأفكار لم تطرأ على بال آبائنا وأجدادنا وقت بناء الخزان وتعليته ، وإلا للجأوا إليها.

*　　*　　*

رن جرس الباب فذهبت لأفتحه بعد أن ارتديت ملابسى الجديدة التى جاءنى بها الأسطى مدثر «الشوفير» - هكذا سمعتهم ينادونه - كان الطارق رجلاً ضخماً ، يتدلى اللغد على رقبته كما الديك الرومي،

مسترسل الشعر، أسوده، كان يلهث من ثقل صندوق خشبى كان يحمله بين ذراعيه وفوق تكويرة بطنه، ناولنيه وهو يقول بصوت متهدج: خذ يا عبده هذا الصندوق، وضعه فى الثلاجة الكبيرة.

(عبده؟ هذا اسم آخر غير عثمان، وهو أيضاً يليق بالخدم..!)

رآنى الريس دهب أنوء تحت ثقل الصندوق فحمله عنى وهو يتمتم بكلام غاضب: جهنم وبئس المصير.

قال: كباره مبتسماً: هؤلاء لن يدخلوها يا ريس، فلم يُخلقوا لها.

قال العم دهب: طبعاً .. تقصد كل من يشربها لن يدخلوها.

واستغرقا فى الضحك.

بدأت أرتال الضيوف تجىء زرافات ووحدانا، ورجال يرتدون البلاطى السوداء الطويلة من الخلف، وحول أعناقهم أربطة سوداء تشبه الفراشة، والنساء يتدثرن فى بلاطى سوداء، قطيفة، ومن أكتافهن يتدلى فرو الثعالب الثمين، والأعناق تتحلى بدرر تخطف الأعين، وروائح العطور تنتشر منهن فتعبق فضاء المكان.

امتلأ البهو فبدأ الريس كباره وحمد يدوران بينهم بالصوانى اللامعة، المرصوص فوقها الكؤوس الكريستال، وبها قدر متساو من الخمور المتنوعة، وعلى الموائد الصغيرة انتشرت أطباق الأوردف والفول السودانى والجبن الرومى والترمس وكل أنواع المخللات .. أفرغوا ما فى الكؤوس فى بطونهم النهمة، ولاكت أفواههم المزات .. هب الهواء فلعبت الخمر برؤوسهم .. فراحوا يهتفون: موسيقى دولت هانم ..

انبثقت موسيقى راقصة من السماعات المثبته فى أركان البهو الفسيح، فتخاصر الرجال والنساء، وراحت سيقانهم تتحرك حركات

بطيئة، وتلامست الخدود، ونامت الشفاه فوق الشفاه، وتلاصقت الأجساد، وتكاسلت الخطوات، وأنا واقف فى أحد الأركان كإنسان بدائى جاء توا من أحد الغابات.

يا أولاد الكاااالب ما هذا الذى تفعلونه؟ وماذا أنا فاعل؟ أشاهد فقط؟ ثم .. يا نهار أسود ومنيل .. أين يذهب هؤلاء .. ورحت أتطلع الى الحجرات المتناثرة حول البهو، حجرات كثيرة يدخلها كل راقصين ويغلقان بابها .. و .. ها هو ذا معالى الباشا الأحمر يخاصر واحدة ويراقصها .. يا نهار أبوك أسود.

لقد دخل بها إحدى الحجرات وأغلق بابها .. أين المرأة ..؟ دولت هانم ..؟ أكيد هى أيضاً فى حجرة مع رجل آخر .. اتفو، وأين السندريلا .. شيرين هانم ..؟ ها هى تقف بجوار شاب مخنث .. يلعب حواجبه ويتقصع كما الحريم .. ما هذا الذى آراه ..؟ لا لم أصبح متفرجاً فقط، فرحت أتحسس أعلى رأسى خوفاً من أن يكون قد نبت لى قرنان.

لماذا تقف هكذا ..؟ تعال.

وأخذنى من يدى الى الأوفيس .. قال: هل أستظل واقفاً هكذا؟

ستقع من طولك وستتكسر أرجلك .. إجلس.

وجاءنى بكاس نبيذ: خذ. أشرب، فالليلة شديدة البرودة.

قلت: لا أشرب يا حمد.

- لا تخف .. كل الناس هنا يشربون.
- إلا أنا.
- لو شربت ستجد نفسك فى الجنة.
- النار أفضل من جنتك.

- آآه .. أنت منهم.
- مِن مَن؟
- لقد عرفتك.
- عرفتنى ..؟

وأدركت أنه بدأ يفقد السيطرة على لسانه، إذ خرجت الكلمات من فيه غير واضحة، فآثرت الانسحاب الى البهو، لأجد الريس دهب وكباره يغطيان الموائد بأقمشة خضراء، ويضعان فوق كل منها ورق اللعب وأقراص بلاستيكية بيضاء أمام كل مقعد، ثم وضعا بين منضدتين منضدة صغيرة، عليها أكواب وكؤوس فارغة، وزجاجات خمر، ودلو صغير لامع ملُىء بمكعبات الثلج .. تحلق الرجال والنساء الموائد الخضراء وسرعان ما استغرقوا فى لعب الورق، وامتلأت المناضد بأكوام الأوراق المالية الخضراء والحمراء التى راحت تنتقل من جانب الى آخر ..

يا خبر أبيض .. أكل هذه نقود .. ألف .. ألفان .. يأخذها لاعب فى دقيقة ويخسرها فى ثانية .. سبحان الله .. كم يتقاضى الطباخون الثلاثة والعم دهب وزميلاه فى الشهر. أربعون جنيهاً .. خمسون ..؟ صاح أحد اللاعبين فجأة بعد أن ألقى أوراقه على المنضدة:

أكسب ..

تكومت كل النقود أمامه راح يتلفت حوله .. التقطتنى عيناه .. التقطت أصابعه ورقة مالية ومدها نحوى وهو يقول: وشك حلو يا بريرى يا صغير .. خذ وناولنى الورقة .. جنيهاً كاملاً لم تمسكه يدى من قبل،

لم يعطنى فرصة للرفض أو حتى مجرد التفكير .. لكنه ابن الزانية قال لى يا بربرى .. هل نحن همج حتى يطلقوا علينا هذا اللفظ؟ نحن أصل الحضارة أيها المخمور .. محررى مصر مع أحمس من الهكسوس، أحفاد رماة الحدق يا جاهل ..

عموماً هذا .. الجنية أحسن منك، وأننى محتاجه بالفعل فى هذا الوقت بالذات .. فقد مرت شهور كثيرة على مجيئى الى القاهرة ولم أرسل خلالها مليماً أحمر لأمى.

* * *

- اين تسكن؟
- مع جدى فى عابدين.
- نفس الطريق، فأنا أسكن فى البلاقسة.

سألته: هل أسرتك معك يا عم دهب ..؟

قال: نعم: ثم أردف متباهياً .. إن لى ابن حصل هذا العام على التوجيهية.

صحت فرحاً: ما شاء الله .. ليت أبناء النوبة كلهم يتعلمون.

أضاءت بسمة حلوة وجهة المستدير، قبل أن ندرك شارع البلاقسه ببضع خطوات التقطت آذاننا نقرات دفوف قوية .. طربت لإيقاع النقرشاد .. قال العم دهب: الليلة فرح ابن أخ لنا من أمبركاب، يسكن معنا فى نفس البيت.

لم نكد نلج شارع البلاقشة حتى وجدناه يكتظ بالخلق .. رجال كثيرون يحيطون بأربعة من الشباب يرقصون على الإيقاع رقصة الكف، بينما ضاربوا الدفوف يقفون فى محيط الدار، ووشيش

كلوبات الغاز المنتشرة فوق الرؤوس كطنين الذباب تهاجم الآذان، والأضواء المنبثقة من الكلوبات أحالت المكان الى نهار، وعيناى تدوران فى محجريهما باحثة عن المطرب الذى يُعدد مناقب العريس وقبيلته بصوت حلو قوى، ليس غريباً على أذنى، حتى التقطته واقفاً بين ضاربى الدفوف بوجهه الأبنوسى اللامع وعمامته البيضاء الكبيرة .. إنه على خليل المطرب الكنزى الشهير .. قال الريس كباره لما سألته عنه.

تارى وآريس تارى

مندره نجر شين بولو

شباك سته جومبولو

يردد الرجال المتناثرون حوله .. هيلى يا .. سابيدا نيللى يا.

أشار العم دهب الى البناية التى يقطنها، وألح علىَّ أن أصعد معه لأتعرف على ولده جمال، لكنى اعتذرت لتأخر الوقت، ووعدته بضرورة زيارته مستقبلاً، وأستأذنت للانصراف.

قال حمد: بَكِر غداً إن شاء الله.

قلت: إن شاء الله.

* * *

استيقظت مبكراً على غير العادة .. تناولت الشاى الممزوج بالحليب على عجل، ارتديت ملابسى ثم جريت الى الطريق .. كان الجو صحوا، وأشعة الشمس الذهبية المنبثقة من قرصه الكبير الرابض فى أحد أركان السماء تبعث الدفء، على الرغم من أننا لم نزل فى يناير الذى انتفخت فى أيامه الفائتة أصابعى، فكنت أدسها فى جيوب جلبابى، بعد أن اكون قد علقت مخلاة كتبى فى عنقى.

الجنية الأخضر الذى تزينه صورة الملك وردى الوجه، مازال رابضاً فى جيبى .. لماذا لم أعطه لجدى ليرسله الى أمى؟ لا لا الأفضل أن أرسله بنفسى، وأكتب لها خطاباً بخط يدى لأطمئنها علىّ، ومن يدرى، فربما تعوز جدى الحاجة، فيحتفظ بالجنية لنفسه خاصة وأنه خالى شغل من مدة طويلة .. اليوم ١٦ يناير ٥٢، وسنمكث فى العزبة التى لا أعرف موقعها يوماً أو يومين .. بعد عودتى من هناك سوف أرسله لها.

ركبت الترام من ميدان باب اللوق .. لم يكنْ به غير نفر قليل من الركاب، حتى أننى كنت أجلس وحدى فى أحد دووانيه، ركب شابان من المحطة التالية .. يبدو من مظهريها أنهما طالبان فى الجامعة أو فى نهاية المرحلة الثانوية .. أخذا مكانهما وسمعتهما يتحدثان بصوت خافت.

- عرفت من مصدر قريب من القصر أن الحكومة تخطط لمقاطعة التعامل مع معسكرات الإنجليز.
- وهل أصدرت الحكومة قراراً بوقف إمداد الإنجليز بالمواد التموينية؟
- ليس بعد.
- لماذا ..؟
- لأنها تخشى أن يتخذ الإنجليز قراراً بوقف إمدادنا بالمواد البترولية.
- آه .. إن من لا يملك موارده لا يملك قراره.
- مهلاً .. قرار المقاطعة سينفذ بالتدريج، دون إعلان، ثم ينفذ

كاملاً بعد أن نكون قد ضمنا أن المخزون السلعى يكفينا لمدة طويلة.

* * *

ولكن كيف ذلك ..؟ تمور الأسئلة فى رأسى .. هل هناك أسرار فى هذا البلد ..؟ هل سيتضامن الموردون من الباشوات، أصحاب الأعمال، المتخمة جيوبهم من توريد احتياجات قوات الأحتلال تلقائياً، يوقفون توريداتهم بدافع وطنى ..؟ أم سيكون ذلك بقرار ..؟ وهل سيوافق الملك لو علم بذلك ..؟ أشك فى ذلك ثم من هو وزير الداخلية ..؟ أليس هو أحد كبار موردى السلع التموينية لمعسكرات الإنجليز فى مدن القناة؟ وغيره من وجهاء هذا البلد الطيب.

سبحان الله .. خير مصر عليهم ومع ذلك يضحون باستقلالها من أجل حفنة جنيهات.

ما أن عبر الترام كوبرى عباس حتى سمعت هتافات مدوية تتناهى الىَّ من بعيد .. أرسلت بصرى لمداه، رأيت أعداداً كبيرة من الشباب، يرتدون الملابس الأفرنكية، ويحملون واحداً منهم على أعناقهم .. يردد هتافات ناريه: يسقط يسقط الاستعمار .. ينسكب فى أذنى هدير المتظاهرين كسيمفونية رائعة: يسقط الاستعمار .. يسقط كل العملاء.

فجأة توقف الترام، دوت طلقات نارية، طلقات كثيرة .. على اثرها تفرق المتظاهرون .. جروا الى الشوارع الجانبية .. ابتلعتهم للحظات لتلفظهم بعد دقائق ليقذفوا العسكر بالأحجار، ثم يفرون ثانية الى بطون الشوارع الجانبية.

قال أحد الشابين لزميله: رئيس القسم المخصوص القذر يضرب شباب مصر لصالح الإنجليز.

وجدتنى أسأله: ألبانى ..؟

قال متنهداً: للأسف مصرى

وقبل أن أهم بمغادرة الترام لأستعين بوسيلة أخرى وجدته يتحرك فى بطء، ثم أخذ سرعته المعتادة . عساكر بلوكات النظام متراصة على الأرصفة .. تقبض يسراهم على الدروع ويمناهم تمسك بعصى أطول من قاماتهم ..

الكلاب يجندون أبناء الشعب لضرب الشعب.. لو كان هناك تنظيم وطنى قوى لأمكنه تجنيد هؤلاء لضرب النظام.. أين الجيش..؟ أليس فيه وطنيون يحسون بنبض الشاعر المصرى..؟ أليس الجيش هو أقوى التنظيمات ..؟ هل ماتت عزائم رجاله وفترت هممهم ..؟

- مالك يا بنى .. ماذا بك؟ أراك تحدث نفسك وتقلب كفيك .. أشركنى معك، فربما أستطيع مساعدتك.

انتبهت على صوته، لم أكن قد رأيته عندما ركب الترام .. نظرت حولى ووجدتنى أهب واقفاً وأقفز الى الطريق .. أغز السير نحو القصر، فى ذلك الحى المغطى بالخضرة والأشجار المزهرة ..

كان القلق باد على وجهيهما وهما يقفان أمام القصر فى انتظارى .. صاحا فرحين بمجرد أن رأيانى: الحمد لله أنك بخير.. انشغلنا عليك.. هيا.

بسرعة نزلنا الى الجراج وركبت معهما السيارة التى كانت فى انتظارنا .. جاءت جلستى بين الريسين دهب وكباره، بينما جلس حمد

بجوار السائق الذى لم أتعرف عليه بعد ، ولو أننى أحسست بحفاوته وهو يشد على يدى مُسلماً ..

القد ممشوق والوجه أسود محروق والراس يغطيه طربوش أحمر عال .. رحت أرنو الى صفحة وجهه الذى تعكسه المرآه المثبتة فى الجزء العلوى أمامه وأنا أسأل نفسى: أتراه من السودان؟ بالتحديد من غرب السودان ..؟ فهذا الوجه الغامق والتقاطيع الدقيقة ليست إلا لعربى، هاجر جده الى هناك منذ مئات السنين، ومن صلبه كان هذا الرجل.

لفظنا صخب المدينة وضجيجها الى هدوء الريف .. تحفنا الأراضى الزراعية من الجانبين، ويتخللنا صمت مهيب، لم يتجاسر أحد أن يقطعه، حتى سمعت حفيد العرب يقول: مرحباً بأخينا الجديد.

انتشلنى من سرحانى فى بحار الخضرة والفضاء الرحب الذى افتقدته منذ جئت للمدينة .. قلت: مرحباً بك.

- إيه يا أولاد العم .. لم تعرفونى بصاحبكم.

قال كباره: أخوك ذا النون من قورته.

ضحكت كل أساريره .. خلت أن كل ذرة فى جسده يختلج وهو يردد مُرحباً بى .. حبابك عشرة، ، ثم وهو يمزج الضحك بالكلام الذى وجهه لكباره .. أصبحت مهمتك صعبة يا كباره .. لقد أصبحنا أربعة ضد واحد.

لابد أن تجىء بثلاثة.

(الله .. إذن هو كنزى وليس كما خمنت .. لكن من اى البلاد يا ترى؟)

قال كباره: لا .. اطمئن .. ذا النون مشترك يا أخى .. ألم تعلم أن هناك نسب بيننا وناس قورته؟

قال بنفس طريقته التى يمزج فيها الكلام بالضحك .. لا تتمحك فى الكنوز ..المهم أننا أكثر عدداً الآن، والخوف أن نشن عليك حرباً.

قال كباره وهو يمثل أنه سيخلع ملابسه لمشاجرتنا: دعونى أفرجكم يا أولاد الـ

وتعالت القهقهات تملأ فراغ العربة.

- والأخ من أى البلاد ..؟ سألته.
- أخوك مدثر خليل من غرب أسوان.
- آآه .. أنتم هُجرتم الى أسوان إثر التعلية الأولى.
- لا .. أعتقد أننا جئنا الى أسوان إثر بناء الخزان، حيث أغرقت مياهه كل أراضى الشلال، فلم نجد بدا من الهجرة.

قال كباره فى أسى: والله إنكم أحسن حالاً منا: ليتنا فعلنا مثلكم.

قال العم دهب: وأنتم أيضاً أحسن حالاً منا .. لقد أصبحت قرانا قفراً بعد بناء الخزان .. لم يعد فيها شريط ضيق يزرعه أهلونا هناك.

زفر كباره زفرة ألم وقال: كلنا فى الهم شرق.

ضحك مدثر وقال: لا تقلبوها غماً .. سأفتح لكم الراديو، فربما تغنيكم أم كلثوم أو ليلى مراد لتزيل عنكم همومكم.

انسابت الموسيقى التى صحبتها الأغانى الوطنية، فساد بيننا الصمت وتوجسنا خيفة من هذه المقدمة، وكان أحساسنا صادقاً، إذ سكتت الموسيقى فجأة ليقول المذيع بصوت عميق:

دارت اليوم معركة شرسة بين قوات بلوكات النظام والفدائيين من جانب وقوات الاحتلال من جانب آخر فى مدينة الإسماعيلية، بعد أن تمكن لفدائيون من قتل ثلاثة ضباط وسبعة جنود من الإنجليز، مما أهاج قوات الاحتلال ليهاجموا مبنى محافظة الإسماعيلية فى ساعة مبكرة من هذا اليوم، وتقدمت بعد ذلك بمذكرة لقوات البوليس وبلوكات النظام تطالبها فيها بضرورة الانسحاب وإخلاء المبنى وتسليمه لها، وقد قوبل طلبهم بالرفض، بل وصدرت الأوامر من وزارة الداخلية لقوات بلوكات النظام بالصمود والمقاومة.

صاح مدثر فجأة: برافو فؤاد باشا سراج الدين.

قلت: موقف يحسب لحكومة الوفد لاشك، ولكن كيف يتفق ذلك مع موقف رئيس القسم المخصوص الذى يقبض على الطلبة وقادة العمال ويزج بهم فى السجون؟ وكيف يصدر أوامره لضرب المتظاهرين ضد الاحتلال بالنار؟

- المهم أن الكلاب يحاصرون مبنى المحافظة بالدبابات، والمواجهة ستكون بين بنادق قديمه وآليات حديثة، وهيبة حكومة الوفد أصبحت رهينة بنتيجة المعركة بين الإنجليز والفدائيين.

قال حمد: دعنا من هذا الموضوع.

قال العم دهب محتداً: ألست مصرياً .. إن الاستعمار لا يفرق بين مصرى أبيض وآخر أسود.

قال حمد: لوكنا سواء لما اوقعوا بنا هذا الظلم الذى كان سبباً فى نكد العيش الذى نعاتبه.

أجابه كباره قائلاً: ألا ترى أن الظرف الحالى لا يحتمل مثل هذا الكلام ..؟

قال حمد: الإنجليز سيرحلون؛ لأنهم لن يقدروا على مواجهة الثورة المستمرة، ولكن المشكلة فى أبناء بلدك الذين استمرأوا ظلمنا، ومشكلتنا نحن السكوت على هذا الظلم حتى ألصقوا بنا صفة الطيبة التى باتت مرادفة للعته أو العبط.

من البعيد بدت قمم بيوت وقباب ومآذن وأبراج حمام، وعلى جانبى المدق الذى تقطعه السيارة يتناثر بعض الفلاحين بسراويلهم الطويلة وسيقانهم الخشبية، والمناديل العريضة يشدونها على جباههم، بينما يتحلق البعض أرغفة جافة وقطعاً من الجبن القريش وبعض أعواد السريس، والبعض الآخر يتقرفص حول راكيه عليها براد أسود.

تلتقط أعينهم السيارة فيهبون واقفين، ترتفع أكفهم بالتحية .. الوجوه صفراء ممصوصة، والعيون غائرة، لامعة، والأبدان هزيلة .. رفيعة كما البوص، منكوته فى سيقان كجريد النخيل .. سبحان الله .. كل هذه المساحات الخضراء وتعانون الفاقة .. لمن إذن محاصيل هذه الأراضى الزراعية؟! آه .. فهمت .. نحن وأنتم سواء أمام هؤلاء الكلاب آكلى لحوم الفقراء وشاربى دماءهم ..

أبطل مدثر المحرك بجوار أحد الأزيار .. جاءنا أحد الفلاحين مهرولاً وهو يردد .. مرحب يا بهوات .. أيها خدمة ..؟

بل الأسطى مدثر ريقه من ماء الزير.

تحت أمركم يا بهوات.

الوجه أصفر كما الكركم، ليس فيه نقطة دم واحدة، والجلد مقدد.

قال كباره: لسنا بهوات يا حاج .. نحن من طينة واحدة .. كنا فلاحين أمثالكم قبل أن يغرقنا الملك وباشوات مصر فى مياه الخزان.

تبدلت نظرة الرعب فى عينيه .. باتت صافيه كصفحة السمء الرائقة فى نهار الربيع .. انفرجت شفتاه عن أسنان مثرومة .. أفزعنى لونه الشمعى .. وجدتنى أسأله: لماذا؟

قال: البلهارسيا.

قلت: لماذا لا تتعالج؟

قال: حصل.

قلت: ربما لم تكمل علاجك ..؟

دس يده فى جيبه، ناولنى ورقة صفراء متآكله الأطراف قائلاً: أعطانيها الطبيب وقال لى: كتبت لك فيها تقريراً عن حالتك المرضية.

سكننى الرعب بينما كانت عيناى تتقافزان بين كلمات التقرير .. سعيد أبو الخير .. ٤٥ سنة، بالكشف الطبى على المذكور، وعمل مزرعة بول وبراز ودم تبين أنه مصاب بالبلهارسيا والإنكلستوما والروماتيزم والبلاجرا وفشل فى الطحال وصديد فى البول.

نظرته مذعوراً، وانطلق السؤال رغماً عنى: وعايش؟!

انطلقت من فيه ضحكة كالبكاء ثم قال: عمر الشقى ..

هيا يا أسطى مدثر .. لقد تأخرنا كثيراً.

نبهه العم دهب فضغط مدثر على دواسة البنزين.

سأل مدثر العم دهب: أخبار ولدك جمال إيه؟

قال: تصور أننى كنت أفكر أن أطلب من الباشا مساعدته فى إلحاقه بالجامعة.

سألته: وهل الالتحاق بالجامعة يحتاج لواسطة؟

قال: كل شىء فى هذا البلد يحتاج لواسطة، حتى الدخول للمراحيض العامة.

قال كباره: حاول .. لم لا ..؟

(ما هذا .. أين نهاية هذا السور ..؟ أرسل عينى الى المدى فلا تصلان لنهايته .. كانت البوابة كبيرة وضخمة والأبواب الحديدية العالية تجرى عجلاتها فوق قضبان دائرية، وأربعة خفراء من ذوى الأجسام الهائلة، يقفون أمامها كأفلاق النخيل، شاكين أسلحتهم على أكتافهم، وحول السور تنتصب أعمدة النور الكهربائية، وبنائين عظيمين كالقباب الطولية على جانبى الباب).

مرقت العربة بممرات مفروشة بالرمال، وعلى الجانبين أشجار الفواكه تنشر أريجها فى الفضاء .. أشجار موالح ومانجو وجوافه.

قالت جدتى ذات مساء بعيد: كانت لنا جناين زاخرة بأشجار المانجو والليمون، أما نخيل البلح فلم يكن لها مثيل فى بر مصر، فلماذا لم يكن النوبيون أغنياء مثل هؤلاء القوم .. سألت نفسى.

قال لى العم دهب: لم تكن أراضينا بهذا الكم.

سألته: لماذا ..؟

قال: كان الماء المحمل بالغرين الآتى من الجنوب يترسب هنا فى الشمال، فتكونت الأرض الخصبة، وبقيت أراضينا صفراء، جرداء،

فقال الشباب: لم البقاء ..؟ لنرحل. قال الكبار بحكمة الشيوخ: لنتريث حتى تضح الأمور.

رائحة اللحم النيء تنتشر فى المكان يحمله الهواء الى أنوفنا .. التقطتنا عيناه .. زعق فرحاً: أهلاً!! أهلاً حمد .. حمد الله على السلامة.

اتجهت أعيننا صوبه .. تعلقت عيناى باللحم المعلق فى الخطاطيف .. كم خروف .. أربعة .. خمسة .. ستة؟!!

رد حمد قائلاً: الله يسلمك يا عويس .. كيف حالك؟

وأقبل كل منهما على الآخر .. إلا أن حمداً توقف فجأة عندما رأى صاحبه غارقاً فى دم الخراف المذبوحة حالاً، ثم قال صائحاً:

من بعيد يا عويس .. من بعيد.

قهقهة عويس ضاحكاً فاهتز كرشه، وأقبل على حمد وأخذه فى حضنه وضغط على ضلوعه – متعمداً – بذراعيه القويتين .. ينفلت من حمد آهة واهنة، وكلمات تنفلت من فيه نسمعها بالكاد: اتركنى يا طور ..

يستل القصاب سكيناً حاد الطرفين، مدبب من حزام مشدود الى وسطه، ويقرب نصلة المدبب الى رقبة حمد، فأحس بقلبى يقع، يجرى كباره والعم دهب نحوهما، لكنهما لم يكادا يريان منظر القصاب غارقاً فى الدم حتى تسمرا مكانهما صائحين: اترك الرجل يا جاموس.

قال عويس: ليس قبل أن يوافق على أن يزوجنى أخته.

تسرب صوت حمد من بين ذراع طويلة، قوية كمدراه، تلتف حول عنقه: لك أنت يا حلبى .. يا جوريتى؟!

- ولم لا .. جزار وكسيب يا بريرى.
- لو حصل هذا لأدفنن نفسى بالحياة، أو ألقى بنفسى من أعلى بناية.

قهقهة القصاب عالياً ، ثم أطلق حمداً من بين يديه وهو يقول: فقر وعنطزه .. لكن براڤو اعتزازكم بأنفسكم والله،

وأخذه الى حضنه وقبله، ثم شد على يدى وهو يردد مازحاً :إيه ..بريرينو جديدة.

ضحك العم دهب وهو يقول: عمك عويس رجل طيب .. مهزار .. ضحوك .. يأخذ الأمور ببساطة متناهية.

قال عويس: قول يا باسط يا عم دهب.

(آآه .. قل يا باسط .. هذه فلسفتكم التى أضاعتكم)

ثم أردف قائلاً لعم دهب يسأله عن أحواله وأخبار الولد الكبير جمال. قبل العم دهب أطراف أصابع يمناه وجهاً لظهر وهو يقول: الحمد لله .. نجح فى التوجيهية وإن شاء الله يلتحق هذا العام بالجامعة.

فقال عويس فرحاً : الحمد لله .. الحمد لله، ولم لا توسط له الباشا فى إلحاقه بالجامعة ..؟

قال العم دهب وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة: لا لا .. مستحيل، لقد رفضت ذلك من قبل.

قال عويس متسائلاً: ولم لا يا عم دهب .. لن تخسر شيئاً لو رفض .. ولو قبل يسر لك ولجمال الأمور.

قال العم دهب: هذا الرجل يتشاجر مع ذباب وجهة.

قال عويس: ألن رأسك وجرب.

هيا .. هيا يا أولاد ..

وأخذنى العم دهب تحت جناحه واتجهنا الى إحدى الغرف المتراصة بجوار بعضها وهو يعد عويساً بالتفكير فى الموضوع.

سألته بعد أن أصبحنا وحدنا: ولماذا الحقوق؟

قال فى ثقة: الحقوق كلية الوزراء .. ألم يتخرج منها مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول؟

سألته: كيف عرفت؟

قال: أنا أقرأ الصحف منذ الصغر .. ألا تعرف أننى حصلت على الابتدائية من عنيبه؟

قلت مندهشا: يااه، ولكن لماذا لم تعمل موظفاً؟

قال بصوت كالأنين: لم أجد واسطة، ولما جئنا الى هنا مضطرين لم أكن أعرف احداً لمساعدتى فى ذلك.

ثم أردف بعد صمت قصير: تعرف .. لقد أدركت بعد مجيئنا إلى هنا أن قرارنا هذا كان خطأ كبيراً .. كان قراراً بلا تفكير ولا روية؛ وكل قرار يجىء بهذه الصورة لابد وأن تشوبه بعض الأخطاء، بل وربما يكون كله خطأ ..

تعرف يا ولدى إن النوبة بها أرضٍ واسعة ومسطحة تستوعب كل الكنوز والعرب والفاديكا .. صحيح هى بعيدة عن النهر، لكن كان يمكننا أن نحفر فيها آباراً تعوضنا مياهها عن ماء النيل لرى الأرض.

تساءلت: والآن .. ألا يمكننا العودة ..؟

قلب كفه وحرك أصابعه واندهشت عيناه وهو يتساءل: كيف؟

كيف يمكننا أن نجمع الرجال ونقنعهم بالعودة؟ وإذا حصل وجمعناهم فمن أين لهم بثمن تذاكر القطار والباخرة؟

- والحكومة .. ألم تبد من جانبها أية بادرة لإصلاح الأراضى ..؟
- بلى، فقد أقامت بعض المشاريع، لكنها مشاريع هزيلة، لا تتعدى عشرة أو بضعة عشر فداناً على أكثر تقدير فى السنة. مثل مشروعى الدكه وكشتمنه .. ففى كم سنة بالله عليك يمكنها أن توفى بحقوق المستحقين لهذه الأراضى ..؟

* * *

استبدلنا ثيابنا ثم صعدنا الدرج الداخلى .. رخام أبيض مقصب بالأصفر المائل للبنى الفاتح. مغطى بسجاد أحمر مشدود على كل درج بقضيب نحاسى أصفر لامع، دُس طرفا كل منها فى حلقتين مثبتين فى طرفى باطن الدرج، والثريات الكريستال الضخمة مدلاة من الأسقف العالية .. الأضواء المنبثة منها يمتزج فيها ألوان الطيف السبعة، وفى السقف ترتفع قباب من الزجاج الملون المعشق .. آية فى الفن والجمال ..

تنفذ أشعة الشمس المتجمعة فى حزم من زجاجها الملون بعد أن تكون قد أكتسبت منه جزء من ألوانها، ثم تلقيها على السجاجيد فتكسبها ألواناً لم أر فى مثل جمالها إلا تلك التى رأيتها صغيراً فى نجعنا القابع وراء الشلال على ضفة نهرنا الذى شارك فى تشكيل وجداننا .. حيث كانت الدور تقف شامخة بواجهاتها المزخرفة، تعلو أبوابها الأطباق الصينى، وفى النهر يرقد الماء ساخناً، وناس النجع قابعون فى صمت بجوار الدور، يتطلعون الى قرص الشمس القانى وهو

يتدحرج ببطء نحو الغرب، ملقياً بأضوائه الملونة على صفحة الماء الساكن بطول النهر وفوق الأطباق، فتسكبها مرة أخرى على الدروب وظهور الدور وشجيرات السنط.

- إيه يا ذا النون .. اين ذهبت؟
- هه .. لا .. أبداً.

استغرقنا فى إعداد الموائد، موائد بطول البهو تغطيها مفارش وردية مشغولة بالقصب، وكراسٍ عالية الظهور، بحواف من الأويما.

جاء حمد وهو يدفع أمامه «تروللى» اكتظت أدواره بالأطباق الصينى المذهبة الحواف، ووراءه الريس كُباره، وقبل أن أهم بمساعدتهما فى نقل الأطباق الى المائدة، ناولنى العم دهب مفتاحاً وأمرنى أن احضر الشوك والملاعق والسكاكين من خزينة حديدية أشار إليها، ثم أوصانى بإعادة المفتاح إليه بعد التأكد من غلق الخزينة.

(ما هذا .. ملاعق وشوك وسكاكين صفراء ..؟ لأول مرة أراها بهذا اللون، ولكن .. يا لله للفقراء .. إنها مدموغة .. كل قطعة مدموغة .. أمعقول أن تكون ذهبية ..!؟ شوك وملاعق وسكاكين ذهبية؟ يا خبر أسود .. لماذا ..؟ لماذا يا أولاد الزنا؟!!)

- إيه يا ذا النون ..؟ أعمل لك همه يا بنى .. يجب أن ننتهى من كل شيء قبل ساعة من الآن.

(تعال يا جدى المسكين .. يا من لفظتك نساء القصور بعد أن أكلن لحمك وارتوين من دمك حتى لم تعد قادراً على كسب عيشك .. تعال لترى قارون يُبعث من جديد على أرض مصر الطيبة).

زعق العم دهب محتداً: إيه يا بنى .. ماذا حدث لك؟ لماذا تقف هكذا مذهولاً؟!

قلت هامساً: هل هذه الأدوات من الذهب الخاص؟

قال وهو يحرك رأسه موافقاً: نعم .. هيا .. هيا

* * *

بدا البهو؛ بعد إعداد الموائد؛ فى أبهى زينته .. كل شىء لامع .. المرايا والزجاج والجدران والمناضد والمفارش والثريات والأبليكات .. اقترح حمد أن نجرى تجربة على شكل البهو بعد أطفاء الأنوار وإضاءة الشموع ..

الله .. ما أجمل ذلك وأبهاه .. الضوء الخافت المنبعث من الشموع يلقى ببعض الظلال على أجزاء من الصالة الكبيرة .. تتراقص متناغمة مع تمايس لهب الشموع المتناثرة فى أرجاء البهو .. ومن الأركان تنبعث أنغام الموسيقى.

لكن العم دهب يأبى أن يتركنا نعيش لحظة فى الخيال، أو مع الأحلام ... انتزعنا صوته: هيا يا رجال .. هيا.

أضاء كباره أنوار كهرباء البهو الواسع، وأطفاء الشموع المتناثرة فى أرجائه، واتجهنا صوب الباب الزجاجى الكبير المقفص بالحديد الخفيف، كان حمد قد سبقنا إليه وفتحه .. أفضى بنا إلى «تراس» واسع، يمتد بطول القصر، وقد غُطيت أرضيته برخام لامع، وتسوره أشجار قصيرة متشابكة الفروع .. تتناثر بينها ورود بنفسجية وحمراء، ويفوح منها شذى رائع، يحمله الهواء إلينا فيبعث فينا إحساساً

بالنشوة، وفى أرجاء التراس انتشرت الموائد المربعة الصغيرة، وعلى كل جانب منها كرسى أبيض بمساند جانبية، على قاعدته شلته اسفنجية ... فى لحظات كسيت الموائد الصغيرة بالمفارش البيضاء اللامعة، والأطباق الصينية، والكئوس الكرستال، وفى مركز كل منضة تتربع «شامبنييره» مليئة بمكعبات الثلج الشفافة.

وبعد أن أنتهينا من إعداد الموائد أطفئت الأنوار العالية، وأضيئت لمبات النيون الزرقاء المدسوسة وراء الجدر الجانبية البارزة.

- هيا .. هيا.

(إيه يا عم دهب .. هل ربطت هذه الكلمة بلسانك اليوم؟)

وجدتنى أنساق وراءهم الى نفس الحجرة التى بدلنا فيها ملابسنا عند قدومنا فى الظهيرة .. ناولنى بنطلوناً أسود وقميصاً أبيض وجاكت أبيض لامع و«بابيون» أسود .. لبستها بعد أن أخذت دشاً ساخناً .. اللـه .. ما أجمل الماء الساخن وهو ينساب الى جسدك كالشلال الهادىء فتسرى السخونة الى عروقك، ويتصاعد البخار من جسدك وكأنه خارج من مسامك، وما أجمل الحمامات المغطاه بالبلاطات اللامعة، فتحسبها مبتلة بالماء، فتنض ثوبك، عن ساقك، ثم سرعان ما تضحك على نفسك.

أصبحنا على «سنجة عشرة»، خاصة العم دهب بطوله الفارع ومنكبيه العريضين، وربطة العنق السوداء تتدلى من عنقه، لترقد فى تراخ على تكويرة بطنه التى لم أر لها مثيلاً بين أبناء بلدتى الراقدة هناك وراء الشلال.

- هيا يا كباره .. اذهب الى المخزن وخذ معك ذا النون وأحضرا الصناديق، وسآخذ أنا حمد ونجهز المزات فى المطبخ.

... نزلنا درجاً وسرنا فى دهليز طويل، انتهى بنا الى درج آخر ، نزلناه ثم دلفنا الى حجرة واسعة ، غطت الأرفف جدرانها .. التقطت عيناى الكلمات المبثوثة على الصناديق الكرتون التى تمتلىء بها .. چونووكر ، بلاك آندهواييت، بيرة ستلا ... بيره ...

أنزل كباره كرتونتين من كل نوع .. حمل اثنتين وحملت واحدة. ما أن عمرت الموائد بالزجاجات وأطباق المزات والأوردرڤ ، حتى بدأ المدعوون يجيئون مثنى وفرادى .. امتلأ التراس بهم .. كل المناضد شُغلت .. انسابت من الأركان موسيقى هادئة .. أدور أنا وحمد بين المناضد .. امتلأت الكئوس وراحت تمتصها الشفاه بلذة .. شفاة غليظة وأخرى حادة، وثالثة ممتلئة فى اعتدال، وبين الرشفة والأخرى تلوك الأفواه قطع الخيار المخلل وحبات الزيتون الأصفر وتمتص الليمون المخلل، وتقضم قطع الجبن الرومى القديم وأقراص الطعمية.

أطمأن الرجل التركى الذى كان يدور على الموائد هو وزوجته مرحبين بضيوفهما ، ويطمئنان على أن كل شىء على ما يرام، ثم جاءا وجلسا على المنضدة التى تجاور الباب وسحب كرسياً وأجلس دولت هانم، وفعلت مثله لأجلس الباشا .. سمعته يقول لها بصوت متوتر:

- لم يجىء حتى هذه اللحظة .. هل هذا معقول؟!
- أنا غير مطمئنة.
- لم يتعود معاليه أن يتأخر عن مواعيده.
- البلد فى حالة اضطراب شديدة منذ أن بدأ الفدائيون نشاطهم ضد الإنجليز بعد مذبحة الإسماعيية.

كان الباشا غارقاً فى التفكير فلم أسمع منه رداً على كلامها الذى أثار لدى الكثير من التساؤل .. أشياء كثيرة تدور حولى وأنا مثل الأطرش فى الزفة.

قالت له بصوت متوتر: يا معالى الباشا قلت لك مراراً بع هذه الأراضى وأودع نقودك فى الخارج الى أن يعود الأمن للبلاد.

قال غاضباً: ألا يكفى بيعك لأملاكك، وإيداع أموالك فى بنوك الخارج؟

قالت: وماذا لك فى مصر؟ لماذا أنت باق عليها وكأنك واحد من أبنائها.

قال: لحم كتفى من خيرها.

قالت: من تجارتك مع الإنجليز، وتوريد الأغذية لمعسكراتهم فى القناة .. من مضارباتك فى الأراضى يا باشا؟

قال مضطرباً: ماذا بك ...؟ اهدئى وأخفضى صوتك.

قالت: لن أهدأ حتى تتخذ قراراً بشأن أراضيك وأموالك الآن.

وبينما هم كذلك لاح من البعيد رجل رِبعة، يمشى وراء كرشة المكور، ما أن وطئت قدماه التراس حتى راحت الرؤوس تلتفت نحوه وتومىء بتحيته .. هب الباشا واقفاً كالملدوغ وهرع إليه يستقبله.

أهلا معالى الباشا .. انشغلنا عليك.

جرى كُباره وسحب كرسياً .. حط الباشا جسده السمين عليه بعد أن قبل يد دولت هانم.

- انشغلنا على معاليك.
- الفدائيون قتلوا اليوم ضابطين كبيرين وعدداً من الجنود.

افترش الذعر وجه الباشا وحرمه، ثم تساءل: ألم تسمعا الأخبار ..؟

قالا: انشغلنا عنها بضيوفنا وانتظار معاليك.

قال: لقد ذهب إليهم نفر من الفدائيون متخفياً فى شخصية بائع برتقال متجول .. التفوا حوله، فانفجرت فيهم قنبلة كان يخفيها تحت حبات البرتقال.

صاحا معاً: يا ساتر.

قال: القصر مقلوب والأمور متوترة والحكومة تتخبط.

- وأين الداخلية؟

- فلت الزمام من الجميع، ورئيس القسم المخصوص فقد صوابه وراح يقبض على كل المشتبه فيهم من الشباب .. امتلأت بهم السجون، وامتلأت قلوب الناس حقداً وكراهية للبوليس والوزراء والإنجليز.

- جميل معالى الباشا .. كل هذا فى صالحنا، خصوصاً لو غلطت حكومة النحاس وفرضت الأحكام العرفية. وهنا تفقد شعبيتها، ويسهل على الملك تنحيتها، ويعين رئيساً جديداً للحكومة.

- اسمح لى معاليك أن أهنئك بالرئاسة الجديدة، فليس هناك فى الساحة أفضل منك.

قالت فرحة: توقعت ذلك، واقترحت أن تقام هذه الحفلة على شرف معاليك.

قال الباشا ورأسه تكاد تسقط على تكويرة بطنه: أين أنا من هذا الشرف ..؟

قالت: لا يا باشا .. أنت شخصية عظيمة وعقلية كبيرة، وضرورى الاستفادة منك، إن لم يكن لرئاسة الوزراء فليكن لرئاسة الديوان.

تساءل مندهشاً: وحسين سرى؟

قالت وهى تدير كأسها بين كفيها: ربما يختاره جلالته لرئاسة الوزراء.

شعر بغصة فى حلقه، لكنه حاول أن يبدو طبيعياً، لم يكن حتى هذه اللحظة قد تناول شيئاً .. هرول كباره الى المنضدة بمجرد أن أومأ إليه صاحب البيت برأسه .. صب كأساً للباشا المكور البطن، وقرب إليه الأوردرڤ ..

قال: لا .. أنا أفضل الطعمية والمخلل.

ضحك الباشا الأحمر الوجه وقال: دائماً معاليك بسيط و .. شعبى.

احتد الباشا قائلاً: لا .. إياك أن تقول ذلك مرة أخرى، وراح يتلفت يمنة ويسرة كالمجنون، ثم أردف قائلاً: ألا تعلم أنه لو سمعك أى واحد يهمة أن يسوىء علاقتى بمولانا لأسرع إليه بهذا الذى وصفتنى به الآن، على الرغم من أنه غير حقيقى، ولن يتوانى جلالته من صرف نظره عنى بصفة نهائية.

تساءلت دولت هانم مندهشة: ألهذا الحد معاليك.

أسرع قائلاً: وهل هناك ملك يختار لرئاسة الوزراء شخصاً موصوم بهذه الصفة.

تساءلت ثانية: أية صفة؟

قال بحذر: المرادف المنطقى لكلمة شعبى.

فنظرت الى زوجها وقالت معاتبه: إية معالى الباشا كلام شعبى ده ..؟! لازم تتأسف لدولة الباشا.

فأسرع الرجل قائلاً: آسف دولة الباشا، أنا لم أقصد شيئاً، ولن أنطق معاليك بمثل هذه اللفظة مرة أخرى.

ثم راح يتلفت هنا وهناك كمن يبحث عن مهرب يفر إليه .. لمحنى واقفاً فامتلأت عيناه رعباً .. أشار إليّ أن تعال، سألنى:من أنت ولد إسود؟ ولماذا تقف هنا ..؟ هل سمعت شيئاً؟

ولم يعطنى فرصة لأن أنطق بكلمة واحدة .. إذ احتد غاضباً: أمش بره .. امش بره.

فررت من أمامه مرتعداً وأنا أهمس لنفسى: لم يقدر على الحمار فـ ... ووجدتنى فى صالة الطعام أمام حمد والعم دهب .. حكيت لهما ما كان من أمر الباشا الأحمق .. ضحكا وقالا: هو هكذا دائماً .. تعال، وأخذنى العم دهب من يدى الى حيث يجلس الباشا ذى اللغد الأحمر المتدلى على صدره كما الديك الرومى.

.. انحنى قليلاً وأسرّ فى أذنه بكلمات وهو يشير نحوى، فأومأ برأسه وهو ينظر الىّ ملياً وكأنه يرانى لأول مره، وتركنى العم دهب وانصرف مجتازا باب التراس.

فى الحقيقى أننى وجدت سعادة كبيرة فى مشاهدة ما يدور فى هذا المكان .. النَهِم للجنس والطعام والشراب ... رجال ونساء مزوقون ومزوقات .. يدلقون فى بطونهم كئوس الخمر ويلتهمون أطباق المزة،

وأعين الرجال مغروسة فى صدور النساء العارية ونحورهن وكل أجزاء أجسادهن البارزة من فساتينهن الشفيفة الضيقة.

وبعد أن أتوا على الخمر وأتت الخمرة على رؤوسهم صاح أحدهم وهو يطرقع بأصابعه: موسقى يا متر ..

انسابت الموسيقة فى الحال من ((فونوغراف)) يقع فى ركن بعيد، عبر سماعات صغيرة مثبته فى الأركان .. قام الجالسون وتخاصر الرجال والنساء والتصقت الأجساد وراحوا يدورون حول أنفسهم، ولا أعرف من أين جاءت تلك الشابة الرقيقة، الرشيقة، رائعة الجمال، حتى عرفت من حمد أنها الأميرة ڤينوس ابنة دولت هانم من زوجها المتوفى - واندست بين المدعوين لتراقص شاباً أشقر، حلوا كفلق القمر، يكبرها ببضع سنين.

الكل يرقص، لم يبق فى مكانه سوى الرجلين ودولت هانم التى تساءلت فجأة: هل البلاد مضطربة بسبب مقاومة الفدائيين للإنجليز أم أن لدى معاليك تفسير آخر.

سألها الباشا متخابثاً: ما رأيك أنت دولت هانم؟

قالت: ألا ترى أن هذا الاضطراب فى مصلحة القصر؟

خلع كل علامات الاندهاش على وجهه ولم يحر جواباً، وظل ينظر إليها وكأنه يقول لها هات ما عندك، فاردفت قائلة: لا أعتقد أنه يغيب عن معاليك ما توصلت إليه.

تساءل: وهو ..؟

قالت: إن الصراع فى النهاية ينحصر بين الإنجليز وحكومة الوفد.

فأضاف: وينفرد جلالته بالحكم ..

ثم مستدركاً .. آه .. نسيت طرفاً مهماً.

تساءل زوجها قائلاً: مَن معاليك؟

قال: الجيش.

قالت حيدر باشا رجل القصر.

قال: لا لا .. رجال الجيش .. ضباطه الذين أسقطوا حسين سرى مرشح جلالته فى انتخابات نادى الضباط، . إن سقوطه يعنى تحدياً صارخاً لجلالته، ولذلك فهو غاضب عليهم كلهم لأنهم خذلوه واختاروا اللواء محمد نجيب رئيساً لناديهم.

تساءلت: وهل هذا النجيب أفضل من حسين باشا سرى؟

قال: المسألة دولت هانم مجرد تحدى وإثبات ذات .. تحدى الملك وإثبات لذوات الضباط الذين أصروا على اختيار واحد منهم لرئاسة النادى .. ومحمد نجيب لواء .. أركان حرب، مصرى .. رشح نفسه فاختاره الضباط.

جاء العم دهب الى التراس واتجه الى المنضدة الرئيسية، وقف منها على بعد نصف متر، وانحنى انحناءه بسيطة وهو يقول لدولت هانم .. تمام أفندى، فقالت بدورها لدولة الباشا:

تفضل دولت معاليك بإعلان بدء العشاء ..

توقف الجميع عن الرقص وساروا نحو البهو مثنى وثلاث ورباع .. اصطفوا حول المائدة الفخمة الممتدة بطول البهو وعرضه، . اصطفت فوقها الصحاف والسلاطين من كل الأحجام، تحيط بأنواع اللحوم

المختلفة والأسماك والأرز والمشهيات – جنبرى بالمايونيز، وأسماك مدخنة ومخللات، وأنواع أخرى لم أرها من قبل ولم أعرفها.

... فى لحظات أتت جيوش التتار عليها .. لم تترك سوى العظام، وسلاسل الأشواك ومثلثات الخبز، جراد جائع هجم على زرع أخضر غض فأتى عليه، وعرىَ الأرض الخضراء .. أبدل ثوبها السندسى الرائع بآخر كالح فى لون التراب،.

وقبل أن ينفضوا من حول المائدة صرخت علينا دولت هانم:

تعالوا.

ظننت اننا ارتكبنا خطأ فأرادت أن تعاقبنا فى العلن، أو تشكرنا لحسن الإعداد والخدمة، لكنى فوجئت بها تقول: وزعوا أنفسكم حول المائدة وفتحوا أعينكم جيدا على أدواتها، ولا تبرحوا أماكنكم حتى ينفضوا من حولها تماماً، فاللصوص كثيرون، والشوك والملاعق والسكاكين مغرية .. سأخصم من رواتبكم ثمن أى قطعة تضيع.

في الليل ارتمينا على فُرشنا في بدروم القصر كخرق بالية .. شعرت بنشر في قدمي، فإننى لم أعتد الوقوف لساعات طويلة من النهار وشطر غير قليل من الليل ..ما أن أغمضت عينى حتى سافرت في قطار النوم اللذيذ، السريع .. قطع المسافة المتبقية من الليل في دقائق معدودات، فلم أشف غليلى من النوم.

- صباح الخير.

فتحت عينى لم أدرك ما حولى حتى سمعت صوتى العمين دهب وكباره يتحدثان.

- إذهب وتوضأ حتى أوقظ هذين الجروين.

حمد .. قم يا حمد يا ذا النون .. قم يا ولد.

- توضأنا وصلينا جماعة على الرغم من أن الشمس في كبد السماء، ثم شربنا الشاى بعد أن ارتدينا ملابسنا على عجل لأغادر والعم دهب العزبة إلى القاهرة التى غبنا عنها كثيراً، أما حمد وكباره فإنهما سيبقيان مع الباشا وزوجه لعدة أيام، وقبل أن نغادر القصر قال العم دهب مهموماً: لا أعرف إن كان ولدى جمال قدم أوراقه للجامعة أم لا، فقد تركته وهو يستعد لذلك.

سأله حمد: لماذا إصرارك على عدم توسيط الباشا؟

أجاب: هؤلاء لا يأتى منهم خير يا بنى.

قال كباره: أنا مُصر أن تجرب .. لن تخسر شيئاً.

قلت: هيا يا عم دهب اذهب إليه الآن.

على مضض ارتدى العم دهب ملابسه كاملة، حتى الكرافت الأسود، ووقف أمام الباشا في التراس ونحن نرقبه في حذر.

- صباح الخير معالى الباشا.

- صباح الخير ولد دهب.

- إن شاء الله معاليك وسعادة الهانم تكونان مبسوطين من الخدمة في حفل الأمس.

- أووه عظيم دهب سفرجى .. عظيم.

تفاءل الرجل من إطراء الباشا، فقال لنفسه: لأدخل في الموضوع مباشرة، فهو في أحسن حالاته الان، وأعتقد أنه لن يرفض مساعدتى،

خاصة وأنها المرة الأولى التى أطلب منه شيئاً، كما أن ذلك لن يكلفه شيئاً سوى مكالمة تليفونية لمدير الجامعة .. لأدخل في الموضوع، أكيد سيعمل لى خاطر، على الأقل للسنوات العشر التى خدمتها عندهم.

- إيه دهب .. لماذا أراك مضطرباً هكذا؟
- لو سمحت لى معاليك.
- قل ولد طلباتك .. قل.
- إن ابنى حصل هذا العام على التوجيهية، وأريد أن تتكرم معاليك وتتوسط له في الالتحاق بالجامعة.

تجهم وجه الباشا وطفر الدم إلى خدية فباتتا حمراوين في لون الدم، وزوى ما بين حاجبيه ثم صاح غاضباً:

إيه ولد بربرى .. تريد أن تلحق ولدك بالجامعة مع أولاد باشوات .. أولاد ذوات .. هه ..؟ وربما تريد أن تلحقه بكلية الحقوق ليكون وزيراً أو سفيراً .. هه .. آخر زمن، ومن سيخدمنا، ومن سيخدمنا ولد دهب إذا كان أولادكم سيدخلون الجامعة؟ أم تُرى أن الدنيا ستتقلب وتصبحون أنتم أسياداً ونصبح نحن الخدم .. امش من أمامى .. بربرى .. حمار.

ثم راح يوكزه بسن عصاه المكسوه بالجلد البنى ويدفعه بها أمامه، والعم دهب في ذهول مما يحدث، غارق بكل كيانه في الموقف الذى لم يتوقعه على الإطلاق .. أما نحن فقد تسمرت أقدامنا بالأرض التى أحسسنا أنها تميد بنا وتغرقنا في دوامة مجنونة .. مفغورة أفواهنا .. مكتومة أنفاسنا لدرجة الموت من الخوف عليه؛ والباشا كمن أصيب

بداء الكلب.، أو كمن ركبه جن صارخ والشياطين تتقافز أمام عينيه، إذ راح جسده الضخم ينتفض، وعروق رقبته الضخمة تنتفخ وتنتفض:

- خدم آخر زمن .. يعلمون أبناءهم ليصبحوا وزراء .. كيف سنستخدمهم بعد ذلك؟! أم ترون أننا سنترك لكم البلد لتصبحوا أنتم باشواتها .. آه يا غجر .. يا كلاب.

وظل صوته يتباعد كلما خطا داخل القصر، ولم يدر العم دهب إذا كان هو الذى يحرك ساقيه ويسير بيننا أم أن الدنيا تلفه داخلها .. أحس بدوار هائل يلف رأسه، وزغللة في عينيه .. كاد أن يقع .. طواه كباره في حضنه، لف ذراعه اليمنى حول خصره .. جريت إلى المطبخ وأتيت له بكوب من الماء بينما كان حمد يقول له: صل على النبى .. وحد الله .. هل هذا شىء جديد عليهم؟، لكن في الحقيقة أننا لم نكن نتوقعه ..

قال العم دهب: الكلب ابن الكلب

ثم تأوه من أعماقه: آآآه .. إن شيئاً يتمزق داخلى.

قال الريس كباره: إيه يا دهب .. وحد الله يا شيخ.

قال العم دهب: الغيظ يملؤنى، وأشعر بقيود تكبلنى .. لماذا لم أرد عليه؟ لماذا لم أقل له إننا أصحاب البلد وأنتم دخلاء عليها .. وأن خير هذا البلد يجب أن يكون لأبنائه المصريين .. ألأننى هنا في قصره، وأنه كان من الممكن أن يلفق لى أى تهمة ويرمينى في السجن؟ ولم لا؟ ألم يملكوا زمام الأمور؟ آه لو أمكننى فعل شىء لأشفيت غليلى.

قلت: إن شاء الله سيحصل.

قال في لهفة: كيف يا بنى .. كيف؟

قلت: قلبى يحدثنى أن أيامهم صارت معدودة.

قال: لا .. لن يشفى ذلك غليلى .. كان يجب أن أقول له أنتم السبب في فقرنا الذى نرزح تحت وطأته .. اغتصبتم مياهنا لتروى لكم أراضيكم، وتدير آلات مصانعكم، وأغرقتم أراضينا وأقفرتم قرانا، فأصبحنا فقراء بعد غنى، وأصبحتم أغنياء بعد أن هددكم الجوع سنين طويلة .. أنتم السبب في تركنا لأرضنا وبلادنا وقرانا ومجيئنا إلى المدن لنعمل خدماً وحراسا وطهاة، لنعول أسراً كاد الفقر أن يفتك بها.

قلنا: اهدأ .. نرجوك أن تهدأ، لقد كنا السبب في كل ما حدث .. دفعناك لتتوسط لديه رغم رفضك، لكن ضميرنا كان سليماً يعلم الله.

أخذنا إلى حضنه وهو يردد: أعلم ذلك .. أعلم ذلك.

وحملت عنه حقيبته القماش، وأحاط حمد وكباره وسطه بذراعيهما، كل واحد من جانب .. كان المسكين يجرجر قدميه وكأنهما متورمتان .. كنت أسير وراءهم شارد الفكر .. تمور في داخلى انفعالات شتى، وتطفو في رأسى علامات استفهام كثيرة .. لماذا كُتب علينا من دون خلق الله في وطننا الطيب الشتات؟ ولماذا نضحى وحدنا؟ ولماذا تُقابل تضحياتنا بالجحود؟ لماذا تظلمنا حكومات الملك بدلاً من أن تكافئنا؟ من منكم يا أبناء مصر يصدق أن النخلة الولاّدة بلح أبريمي أو سكوتى أو أبرتموده تعوض بجنية واحد ..؟ أى والله يا إخوتى بجنية واحد .. لا والأكادة أن ثمرة تضحياتنا ذهبت للباسوات والإقطاعيين

وليس للفلاحين الغلابة .. لماذا لم نقاوم ونرفض بناء الخزان قبل إقامة المشاريع البديلة للأراضى التى ستبتلعها المياه؟ لماذا وافقنا على التعويض البخس ولم نطالب بالتعويض العينى .. أرضاً بأرض وداراً بدار؟؟ لو أنهم فعلوا ما تركنا قرانا، لكننا جئنا هرياً من قسوة الحياة هناك، وكان ما كان:

صاح العم دهب فجأة: آآخ .. كم أنا مكلوم .. مجروح جرحاً غائراً، عميقاً، لن يندمل إلا إذا أخذت بثأرى، ورددت إليه إهانته.

وبعد يا عم دهب ..؟ هدىء نفسك وإلا أهلكتها، والمفروض أن تفكر بهدوء لتقدر على مواجهة هؤلاء الكلاب.

قال العم دهب بعد أن ملأ رئتيه من هواء الأرض البراح، ثم زفره بحرقة مرة واحدة: كنا أغبياء لما تركنا قرانا وأراضينا .. استبدلنا الأدنى بالخير فَرَكِبنَا الهوان.

ثم بعد فترة صمت: انتفخت جيوبهم فنهشوا عظامنا دون مقاومة، وأصبحنا الآن في وضع غير متكافىء فعاملونا كعبيد.

كنا قد وصلنا إلى مكان ظليل فوقفنا تحت شجرة متشابكة الفروع، كثيرة الأوراق على أول المدق الترابي، ناول حمد كوز الماء بعد أن ملأه من زير انتصب تحت أحد الأشجار للعم دهب .. سمى الله قبل أن يمتص ماءه على مهل، ثم حمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه، ثم راح يضرب كفا بكف وهو يردد في غيظ: يصمنا بالبربرية .. هذا المملوك الحقير الذى هرب أجداده إلى قرانا أكرمناهم بإحسان .. ليتنا كنا برابرة، كنا على الأقل استخدمنا أظافرنا وأنيابنا في التعامل معهم.

قال الريس كباره: اهدأ يا ريس .. إنك تنتحر والله، وولدك وزوجك يحتاجانك.

قلت: إذا كنت تحب بلدك فيجب أن تهدئ نفسك لتعرف كيف تفكر في مستقبلها.

من البعيد لاح عويس القصاب قادماً نحونا، يخب في جلباب أبيض كما الحليب .. تسقط عليه أشعة الشمس فتعكسها كمرآه .. افترشت الدهشة صفحة وجهة المكتنز لما رآنا أمامه ..

تساءل: لماذا أنتم هنا ..؟

أشاحوا عنه بوجوههم، وقال حمد؟: اسكت يا عويس .. اسكت .. لم يكن الرجل يتوقع ذلك، فراح يتلفت حوله في حيرة، ثم قال متسائلاً

- أسكت ..؟ لم .. ماذا حدث؟
- لم نعد نطيق كلاماً معكم.
- معكم ..؟ تقصد من ..؟

لملم العم دهب انفعالاته وخلع ابتسامة على شفتيه المتوترتين، ثم قال:

- لا ..لا تأخذ بكلام حمد، فهو منفعل قليلاً.
- حمد منفعل؟! لم اره كذلك إطلاقاً، فقد تميز دونكم بهدوء أعصابه لدرجة البرود.
- إنس هذا الموضوع وأرجو أن تتفق لنا مع سيارة توصلنا إلى القاهرة.

اكتسى وجه عويس الضاحك أبدا بالحيرة، قال مؤكداً وقد تكرمش جلد جبهته: لا .. لابد أن في الأمر شيء، وابتعد وهو يقلب كفيه.

قال العم دهب لحمد وكباره: هيا .. عودا، فقد يفتقدونكما ويسألون عنكما، سنراكما بإذن الله في القاهرة.

قالا: والله لا نود الرجوع إليهم.

جاء عويس بالسيارة فسأله دهب: هل اتفقت على الأجرة؟

قال: اتركها على الله.

وصحبنا إلى أول طريق الأسفلت، خارج حدود القرية .. كانت بيوت الفلاحين الواطئة، الطينية، السوداء، ومياه الترعة الطامية، والفلاحات على شاطئيها يغسلن الأوانى والملابس المتسخة، وكلاب تلغ فيه، وجاموس وبقر وماعز يلكن في تكاسل غريب ما تجتره و .. وبط وأوز تسبح في ماء البرك الآسن، ودجاجات تنبش الطين بحثاً عن طعام.

وحدوا الله .. ماذا حدث .. لماذا أنتم صامتون هكذا .. أقتل لكم قتيل ..؟

قال عويس ثم كركع ضاحكاً، وانتظر أن يتكلم أى منهم .. لكن أبداً .. نفد صبره فتساءل:

ماذا بكم .. كفى الله الشر .. هل مات لكم غال؟

(آه .. صدق حدسى أيها البهلوان)

- يا ريت.

قالها العم دهب ثم زفر ألماً وهو يستطرد: قبض الأرواح خصوصية لخالقها، لكنكم صنعتم لكم أرباباً من دون الله، وإلا فقل لى بالله

عليك لماذا صار الغرباء بهذا الغنى، وغرق الفلاحون في ذل الفقر والحاجة ..؟

- ما هذه الفصاحة يا دهب ..؟ إنك تتكلم ولا أحسن محامٍ، ثم استطرد متسائلاً: ماذا عن أخبار مصر يا أسطى؟

قال السائق: الدنيا مقلوبة في خط القناة.

ظهرت علامات الخوف على وجوهنا، وساد بيننا الصمت لدقائق معدودة قطعها العم دهب قائلاً:

يبدو أن الإنجليز فقدوا السيطرة على أنفسهم من هجمات الفدائيين المستمرة على معسكراتهم، خاصة بعد امتناع التجار عن توريد المواد الغذائية لهم.

قلت منفعلاً: الفدائيون يحاربون المحتل، ونحن هنا قاعدون؟

يا عيب الشوم .. لضم العم دهب كلامه في كلامى .. قال:

هنا بداية الطريق .. محاربة الاستعمار والتخلص منه أولاً، ثم الالتفات للداخل لاقتلاع جذور الفساد الضاربة في الاعماق.

سأل عويس: تقصد من؟

قال العم دهب: هم بالضبط الذين في رأسك.

ومن البعيد بدا الطريق المسفلت فغادر عويس العربة وظل واقفاً حتى أدار السائق المحرك وابتعد بسيارته، وظل يلوحّ لنا بيده، ابتعد حتى صار نقطة صغيرة، ثم ضاع في البعيد، وجدتنى غارقاً في كلامه، ثم هامساً لنفسى ((يبدو أننا نحن الفقراء نفكر بطريقة واحدة.. لقد طرأ السؤال على رأسى بمجرد أن انتهى السائق من كلامه .. لماذا نحن هنا،

بينما إخواتنا يحاربون الإنجليز في القناة؟ لكن كيف يمكننى الالتحاق بمعسكرات التدريب؟ سأحاول أن أجد الإجابة بمجرد وصولى القاهرة.

- ستذهب معى إلى البيت .. أليس كذلك؟
- سألنى العم دهب .. أومأت برأسى موافقاً، فقد كنت متلهفاً لرؤية ولده جمال والتعرف عليه.
- ألم تسمعنى؟
- قلت: بلى .. سأذهب معك.
- إنه أكبر منك قليلاً وأعتقد أنكما ستنسجمان معاً.
- بكل تأكيد.

*   *   *

قال لى جدى متسائلاً لما ذهبت إليه ليلاً: علمت أن أمك وأخوتك سيجئون من البلد ليعشن معكم هنا، فهل هذا صحيح؟

- نعم.
- وهل أنت موافق.
- الأفضل أن نعيش كلنا معاً. أقصد نحن وأمنا وأعتقد أننى وإخوتى قادرون على تحمل مسئولية ذلك.
- هل أصابكم أحد بأذى.
- افتقدنا الإحساس بالحب والحنان منذ سافرت أمنا.

قال: أعرف يا ولدى أن حنان الأم لا يعوضه أى مخلوق.

قلت: وليس لأحد إمكانية صبرها على أولادها، خصوصاً إذا كانت الأم البديلة ..

قال: هاه .. أكمل .. إذا كانت الأم البديلة ماذا ..؟

بينما إخواتنا يحاربون الإنجليز في القناة؟ لكن كيف يمكننى الالتحاق بمعسكرات التدريب؟ سأحاول أن أجد الإجابة بمجرد وصولى القاهرة.

- ستذهب معى إلى البيت .. أليس كذلك؟
- سألنى العم دهب .. أومأت برأسى موافقاً ، فقد كنت متلهفاً لرؤية ولده جمال والتعرف عليه.
- ألم تسمعنى؟
- قلت: بلى .. سأذهب معك.
- إنه أكبر منك قليلاً وأعتقد أنكما ستنسجمان معاً.
- بكل تأكيد.

* * *

قال لى جدى متسائلاً لما ذهبت إليه ليلاً: علمت أن أمك وأخوتك سيجئون من البلد ليعشن معكم هنا ، فهل هذا صحيح؟

- نعم.
- وهل أنت موافق.
- الأفضل أن نعيش كلنا معاً. أقصد نحن وأمنا وأعتقد أننى وإخوتى قادرون على تحمل مسئولية ذلك.
- هل أصابكم أحد بأذى.
- افتقدنا الإحساس بالحب والحنان منذ سافرت أمنا.

قال: أعرف يا ولدى أن حنان الأم لا يعوضه أى مخلوق.

قلت: وليس لأحد إمكانية صبرها على أولادها ، خصوصاً إذا كانت الأم البديلة ..

قال: هاه .. أكمل .. إذا كانت الأم البديلة ماذا ..؟

قلت: صغيرة السن، و .. مدللة.

امتقع لونه وغيض ماء وجهه، شعر بضيق أنفاسه .. أشفقت عليه فقلت مستدركاً .. أو حتى مسنة في عمر جدتى، وجريت إلى المطبخ وأحضرت له كوب ماء، وتجاهلت سؤاله: ألن تتعشى ..؟ وقمت .. أستأذنته في الانصراف.

سألنى: إلى أين ..؟

- سأبيت عند عمتى بحرية.
- ولماذا لا تبيت عندى وتذهب إليها في الصباح ..؟
- لأننا سنذهب في الصباح لاستلام الحجرة التى سنستأجرها

كسى الحزن والغضب وجهه الهضيم، ربما لأننا لم نطلعه على موضوع مجىء أمى وأخواتى من البلد، أو ربما لسبب آخر لا أعلمه.

* * *

في صباح اليوم التالى كنت وعمتى بحرية النور نخترق شارع شركس وحواريه حتى وجدنا نفسينا أمام أم إبراهيم صاحبة البيوت الأربعة المتساندة إلى بعضها .. تقضى يومها متقرفصة في الحارة تراقب عنزاتها وأفراخها، وتنظر الداخل إلى دورها والخارج منها.

- صباح الخير.
- صباح الفل يا أختى.

وتناولت عمتى منها المفتاح بعد أن نقضتها جنيها كاملاً، ايجاراً اشهر واحد.

المدخل رطب، والدرج قديم تحفه جدران مسودة ودرابزين حديدى متهالك .. تتناثر أربع حجرات حول الفسحة المربعة .. كل حجرة

أمام الأخرى في الدرج الأرضى .. اثنتان على يمين الداخل ومثليهما على شماله، ودوره المياه تحت بئر السلم تفوح منها رائحة عطنة تهاجم الأعين فتصيبها بالعمى لثوان، والأنوف فتصيب أصحابها بالغثيان، وفى الدور الثانى كانت بسطة السلم واسعة، تغطيها بلاطات بيضاء مربعة كبيرة .. تؤدى إلى فسحة واسعة، مظلمة، تبينت الحوض وراء بابها، بجواره باب آخر .. كالح، متآكل، تتسرب الرائحة العطنة من ورائه، وأربعة أبواب متناثرة على الجدر المتقابلة مثل التى بالدور الأرضى ..

اتجهت عمتى للباب الثانى على اليمين وأعملت المفتاح فيه ودفعته فانفتح للداخل .. الحجرة مربعة .. في مواجهة الباب بلكونة يؤطر سورها المطل على الحارة سياج من الحديد، على الرغم من أن الجدران مطلية حديثاً بالجير إلا أن الشقوق التى تقطعها من أعلى لأسفل واضحة للعين المجردة .. آه .. كم تخيفنى هذه الشقوق التى تختبىء فيها الحشرات الماصة لدماء الآدميين، عندما يسافرون إلى رحلة النوم بعد عناء النهار.

فُتحت أبواب الحجرات عن ثلاث نساء في عمر أمى .. عرفت أسماءهن لما تحدثن إلى عمتى .. آشا .. قمحية اللون .. شفتها السفلى غليظة، موشومة باللون الأخضر .. يلتف عقد الڇاكيد حول عنقها ويتدلى على صدرها الناهد قلادة البيبه .. ممتلئة في غير إفراط ..

وشاية ومدينة كأنهما توأمان، تشتركان في الوجه الأسمر الغامق المستدير والأنف الدقيق والشفاه المستقيمة .. سمهريتا القد.

أصرت كل واحدة د نهن أن تتولى كنس الحجرة لما أعلنت عمتى بحرية أننا سنذهب لنحضر ((العفش))، ثم أقسمن أن نشرب الشاى قبل أنصرافنا.

سألتنى ـ في الطريق: هل أخبرت جدك ..؟

- : هو الذى سألنى.
- : ماذا قال؟
- لم يكن يتوقع حضورهن.
- هل ظهرت عليه آثار زعل أو غضب؟
- نعم، وسألنى عما إذا كان أحد قد أساء إلينا.
- : لم يعد يعرف شيئاً.
- : كيف ..؟
- : وإذا عرف لا يفعل شيئاً.
- علمت أنك زعلت مع عمتى فاطمة.
- : ألم تعرف ماذا حدث ليلة فرح زبيدة؟
- : كنت غائباً عن القاهرة.
- : لم تتحمل أعصابي ما بدر منهن ـ في هذا اليوم .. لم يمر على وفاة أبيك المدة التى تجعلهم يطبلون ويزغردون.

(خمس سنوات يا عمتى ترينها غير كافية ..؟ صحيح أن الزمن يقاس بالإحساس .. كنت تحبينه أكثر من أخواتك وإخوتك وهو أيضاً).

استطردت قائلة: انفجرت فيهم بعد أن نفد صبرى .. كفاكم طبلاً وغناءً، فإبن عمكم لم يزل لحمه طرياً ـ في قبره.

سكتوا .. لكنهم زعلوا منى.

- وهل أرسلت لأمى كى تحضر من أجل هذا ..؟
- لا .. لقد آلمنى موقف امرأة أبى منكم، خصوصاً لما علمت

بزعيقها في وجه أخيك لما اعتلى سريرها ليطل من النافذة على الحارة، ورفضها لغسيل ثيابكم، وموقف أبى السلبي من كل هذا.

- لا أدرى لماذا وافقتم على زواجه منها.

- لقد سألنا طوب الأرض عنها، لم يشأ أحد أن يقول لنا حقيقة طباعها وشراستها.

- كان حرى بأعمامى أن يتحملوا مصاريفه بعد أن يعرضوا عليه السفر إلى البلدة والإقامة هناك.

- كل واحد يعيش الآن لنفسه .. غيرتنا المدينة يا ذا النون يا ولدى.

- غيرتنا قلة الحيلة يا عمة ... الظروف القاسية تغير أى إنسان مهما كانت درجة نقاوته ... إن الرجل منهم يصعد ويهبط ويجرى حتى تتقطع أنفاسه .. يطبخ ويكنس ويمسح ويخدم ثلاثين نهاراً ومثلها ليلاً، بالإضافة إلى الخوف الذى يملأ جوانحه .. الخوف من أن يفقد عمله في أى وقت ولأى سبب، فيتهدده وأولاده الجوع والتشرد.

- عندكم حق .. عندكم حق.

ثم بعد فترة صمت: الله عليهم .. سودوا عيشتنا الله يسود عيشتهم.

- لا يا عمة .. نحن السبب .. المرض قد يتسبب في طول مدة مرض المريض أو قصرها حسب إرادته، فإذا كان قوى الإرادة علي اجتياز مرضه والتغلب على آلامه تحقق له ذلك فى أقصر وقت، وإلا فالعكس صحيح، والدليل على ذلك استسلامنا لقدرنا، إذ رفعنا الراية البيضاء من أول ضربة سددت إلينا تحت الحزام، فتركنا بلادنا الطيبة ...

هجرناها إلى المدن الكبرى لنعمل خدماً وحراساً وطهاة، بدلاً من تمسكنا بالبقاء فيها لاستصلاح أراضيها ونفلحها ونعيش من خيرها، كما كان أبى يقول دائماً.

قالت متسائلة: نزرع ...؟ أين .. لم تعد هناك أراضٍ بعد التعلية الثانية.

قلت: كان يقول إنه يمكننا مطالبة الحكومة بإقامة المشاريع الزراعية فى الأراضى البعيدة عن النهر، أو وراء الجبال أو حتى في الخيران.

قالت: الحكومة استغلت بساطة ناسك وطيبة أهلك.

قلت مصراً: ناسى يستاهلوا لأنهم لم يطالبوا بحقهم ... أرضاً بأرض وداراً مقابل دار.

كنا قد وصلنا إلى شارع فؤاد، وعند الإسعاف فوجئنا بمظاهرة تهتف بسقوط الاستعمار، وتطالب بطرد الإنجليز، وبحياة شباب مصر أبطال المقاومة والفدائيين .. تسمرت أقدامنا، وراحت عيناى تتابعان حركات الأيدى التى تلوح بقبضاتها في الهواء وتلتقط أذناى هتافاتهم المدوية ... يسقط يسقط الاستعمار.

تساءلت لماذا لا يذهبون إلى مدن القناة وينضمون إلى الفدائيين؟

ثم طلبت من عمتى أن تنتظر في أحد الشوارع الجانبية، وتركتها قبل أن تبدى اعتراضاً وجريت نحو المتظاهرين، وسألت أحدهم ... عن سبب المظاهرة ... أليس من الأفضل الانضمام للفدائيين وحرب الإنجليز ...؟

قال: الإنجليز وجهوا إنذاراً لقائد شرطة الإسماعيلية بإخلاء المحافظة وتسليمهم أسلحة الشرطة.

شعرت بفوران في دمى .. سألته في لهفة: وهل استجاب لهم؟

قال في اعتزاز: طبعاً لا ، وطلب من رجاله الاستمرار في مواجهتهم، وجدتنى أهتف في قوة: عاشت مصر حرة.

فردت الجموع ورائى: عاشت مصر حرة.

ووجدتنى محمولاً فوق الأعناق أهتف بكل جوارحى ... يسقط الاستعمار، وتزلزل حناجر الرجال حولى جوانب الشارع وتخلخل فيها الهواء ...

يسقط ... يسقط الاستعمار.

جبنا شوارع المدينة ... سليمان باشا وقصر النيل و ... شعرت أن كل الناس كانت معنا بأجسادهم .. تهتف بحناجرهم ... أما قلوبهم فقد كانت هناك .. في مدن القناة مع إخوة نذروا أرواحهم في حب مصر .. اجتاحتنى الفرحة لما أنزلنى حاملى من على كتفه ... نظرته فصحت فرحاً: مَنْ .. چورج؟ وطويته في حضنى.

قبل أن توقظنى عمتى بأكثر من ساعة كنت أجلس على الكنبه التى كنت أنام عليها ... مطلا على الحارة، المتدثرة بغبش الفجر والغارقة لأذنيها فى الصمت .. لم يكن الطيور قد نفضت عن نفسها كسل النوم، ولم ترفع الديكة عقائرها بالآذان بعد ...

- ما الذى أيقظك هكذا مبكراً ...؟

- القلق يا عمة.

- لا تحمل هماً يا ولدى ... لو تعاونتم ثلاثتكم ستعيشون في مستوى معقول.
- لقد حملك تفكيرك إلى البعيد.
- ماذا ..؟ فيم تفكر إذن ..؟
- في موضوع أكبر من ذلك بكثير.
- ولد ..!!
- مصر يا عمة.
- مصر لها ناسها يا ولدى ... الملك والباشوات والناس الأكابر، دعنا نعيش .. إسع على أكل عيشك وامشى جنب الحائط.
- مصر لأبنائها يا عمة، وأنا واحد من أبنائها.

إسمع .. غداً تسافر إلى البلدة لتحضر أمك وأخواتك .. فاهم ..؟

ثم قامت وجاءت بصينية الشاى، وقام زوجها من نومه يتثاءب.

- صباح الخير يا ذا النون ... أين أنت يا رجل؟
- أهلين مهمود كتى ... تيبرى أمبيسا ..؟
- الحمد لله .... هل التحقت بالمدرسة الليلية كما اتفقنا في آخر
- لقاء؟
- لا تتردد مطلقاً، ولا تحمل هم المصاريف.
- .....
- أشكرك على اهتمامك.
- كنت أتابعك وأنت في المدرسة، وعرفت مدى اجتهادك وتحصيلك، وخسارة أن لا تكمل دراستك وتضيع مستقبلك.

- سأفعل إن شاء الله.
- والآن إلى أين ..؟
- إلى عابدين لزيارة العم دهب.
- من كلابشة وله ولد يدعى جمالاً، أريد أن أتعرف عليه.
- آه ... ذلك الذى يسكن في البلاقسة ..؟ لقد كنت أريد أن أضرب لك مثلاً به، فقد حصل على الابتدائية من عنيبة، وبدلاً من العمل في وظيفة عمل سفرجياً، فظل هكذا حتى الآن.

أومأت برأسى في أسى لما تجسد أمامى ما حدث بالأمس.

- استأذنك.
- سوف أنزل معك.
- الآن ...؟
- موعدى مع العم دهب الساعة التاسعة.

اخترقت شارع شركس إلى ميدان الأنتكخانة، ثم مريت فسليمان فهدى شعراوى ثم شارع الاسماعيلية ... نفس الطرق التى كنت اخترقها في طريقى إلى المدرسة ... كل شيء معشش في رأسى ... المحال ونوافذ العرض وإشارات المرور والعسس بملابسهم المميزة، وتمثال سليمان باشا وجروبى والبوابون يقبعون أمام الدور التى يحرسونها فى تكاسل غريب ... تماماً كما كانوا يجلسون في ظلال الدور هناك وأمام النهر بعد أن فاضت مياهه وابتلع الأراضى الزراعية.

- هوى أو سمان ... تيبرى أخو ..
- أوو ذا النون ... إنا هال؟

- شد حيلك يا بنى ... نريد أن نراك وزيراً أو محامياً لتعيد إلينا حقوقنا الضائعة.

وتمتلئ وجوههم بالفرحة وهم يؤكدون على أمانيهم الطيبة ...

- ضرورى تشد حيلك يا ذا النون

أمتلئ فرحاً فيتواثب خطوى وأطير فوق السحاب ...

آآه يا ناسى .. يا عشيرتى .. أمنياتكم ضاعت، دُفنت مع جثمان أبى، لكنى أعاهدكم لتحقيقها، تحدياً للخنازير الحمر الذين جاءوا إلينا من بلاد بعيدة، ليستولوا على خيرات بلادنا ويقتلوننا جوعاً.

احتوانى شارع البلاقسة، وفى نهره الضيق أسير .. يعترضه ((فرشة)) جُعلصه .. امرأة تجاوزت الخمسين .. سمراء .. ممتلئة في قوة .. يخافها الرجال قبل النساء .. تلبس الأسود وتتزين بالذهب .. الكل يقولون لها يا معلمة، ولأنها سمراء. داكنة .. تعاطفت معنا، فقلنا لها يا عمة .. تعتبر من معالم الحى مع عم سيد حنفى الدخاخنى وبحبح بائع البليلة.

ها هو ذا سكن العم دهب .. فوق محل الفحم وبائع السمين.

- من ..؟

- ذا النون .. عم دهب هنا ..؟

- اتفضل.

تتقافز عيناى في أرجاء المكان .. حجرة مربعة وسرير كبير بأربعة أعمدة وملاءة بيضاء كما الحليب مطرزة بخيط حريرى أزرق .. تتربع فوق الأعمدة أربع عرائس صفراء لامعة .. تضوى .. تخصف

الأبصار، وصالة صغيرة مؤطرة بـأرفف ملئت بالكتب .. لكـن أين العم دهب ..؟ وأين جمال ..؟

ارتـد بصـرى خائبـاً .. سـألتها عنهمـا وعينـاى معلقتـان بعنـاوين الكتب .. لكى لا تحرثوا في البحر، مواطنون لا رعايا، ثروة الأمم ..

- أين عم دهب ..؟
- نظرت الىّ غاضبة وسألتنى لماذا لا تتكلم النوبية ..؟
- إرما نوبيجى آبيميه؟
- لقد جئت مصر المدينة صغيراً
- هل والداك نوبيان؟
- نعم.

اتسـعت حـدقتا عينيهـا دهشـاً .. عيناهـا واسـعتان، أسـودان، كحيلتان .. أصرت أن لا تتكلم إلا لغتها .. جاءت بها من قراهـا الهاجعة هناك وراء الشلال.

- وأين جمال ..؟ سألتها
- إر چمالجا واللا دهبكى آبرجى؟
- أيا منهما .. جمال أو العم دهب

وأطلقت عقيرتها: چمال .. ووچمال

وجاء صوته من وراء جدار .. إِيو ويَو.

تا .. بينو.

كان صوتها حادا وباتراً، آمراً بالمجىء.

- حالاً يا أمى.

وانشقت عنه إحدى الجدر .. شاب سمهرى القد، حنطى اللون، دقيق الملامح، رآنى فتهلل وجهه فرحاً .. صاح: أهلين .. أهلين.

أخذت كفه في كفى ثم بادرته قائلاً: أخوك ذا النون.

- أهلين أهلين .. لقد حدثنى أبى عنك .. أخبرنى أنك كنت ستجئ معه أول أمس لولا تأخر الوقت، واستمر يتحدث عنك طويلاً حتى عرفت عنك الكثير.

- سعدت جداً بحصولك على التوجيهية، وستتضاعف سعادتى بعد التحاقك بالجامعة.

- شعور طيب أرجو أن أكون على مستواه،

ثم زعق على أمه .. إنديو .. يو .. فتورك جوان آو.

قلت: لا .. لا أرجوك.

قال: كلنا لا نأكل قبل العاشرة .. أليس كذلك ؟

قلت: بلى، ثم سألته: أين الوالد ..؟

قال: في الاسماعيلية .. جاء من العزبة في حالة غير طبيعية، وأصر أن يسافر إلى أخيه ليقضى عنده أياماً.

- ولكن الاسماعيلية فى هذا الوقت بالذات؟

- حاولت أن أثنيه دون جدوى، فأذعنت في النهاية أمام إصراره ..

ثم سألنى عما إذا كان قد اعترضه شيء في العزبة كدر صفوه.

سوء تفاهم بسيط مع الباشا.

(توجست خوفاً .. لماذا سافر إلى هناك في هذا الوقت بالذات؟

ترى هل عزم على الانضمام لصفوف الفدائيين ليحقق حُلمه؟ «الأول نُجلى الإنجليز، ثم نلتفت إلى الداخل للقضاء على الفساد..») كان

الجرح الذى أصابك به التركى الغبى قاتلاً .. لكنك أقوى منه .. سترد له الصاع صاعين، واتخذت قرارك وسافرت إلى هناك لتبدأ أولى خطواتك.

جاءت أم جمال تحمل الكرج(*) وضعته على منضدة صغيرة أمامنا .. كشف جمال غطاءى الطبقين .. فاحت رائحة السمن البلدى الذى يسبح في أحدهما البيض، والفول في الآخر..

هيجت شهيتنا، فأتينا على كل الطعام .. لم نبق منه شيئاً.

قال جمال لأمه مداعباً: تسلم ايديكى يا أم جمال.

نظرت إليه معاتبة ثم قالت: حمار .. هنو، ثم أردفت متسائلة:

ستاكتون آربيجى أيجودون آبينى؟

قال: خشيت أن يكون ذا النون لا يفهمها.

أشرت إلى كتاب رأس المال القابع على أرفف المكتبة بأجزائه الثلاثة ونحن نتناول الشاى، وقلت متسائلاً: هل قرأته؟

قال: لم أستطع استيعاب الكثير مما جاء فيه.

قلت: لماذا لا نقرأه سوياً؟

قال: فكرة رائعة.

ثم استطرد قائلاً: وأرى أن ينضم إلينا ثالث وحبذا لو كان أحد خريجى التجارة، قسم اقتصاد.

استأذننى ليرتدى ملابسه .. تلقفنا الطريق .. غشينا الصمت لفترة .. قطعه جمال قائلاً: حدثنى أبى عنك كثيراً .. أسفت لاضطرارك ترك المدرسة، وفرحت لحبك للقراءة ومحاولتك تثقيف نفسك.

(*) الكرج: طبق كبير من الخوص يستخدم كصينية

قلت: مجرد محاولات.

قال متسائلاً: وماذا عن السياسة؟

قلت: أحاول تحليل ما اسمعه من أخبار وما أقرأه بقدر الإمكان .. ولكن قل لى .. لماذا تركت الوالد يسافر وحده ..؟

قال: لأننى لم أقدم أوراقى للجامعة حتى الآن.

- هل حددت الكلية التى ستلتحق بها.
- الزراعة.
- ظننتك ستتطلع إلى الحقوق.
- مثل أبى.
- ولكن لماذا الزراعة ..؟
- لأننى أريد أن أعطى للنوبة ولو جزءً بسيطاً مما تعلمته، سوف أعود إليها وأعمل في استصلاح أراضيها، لأعيد لها لونها الأخضر الذى ابتلعه مياه الخزان .. سأمحو جهامة الصخر والرمل والتلال التى سودتها حرارة الشمس.
- آمال عظيمة.
- وأنت .. ما هى آمانيك؟
- أمانىّ .. هه .. لم تعد لى أمانى بعد أن مات أبى.
- لا تيأس، فليس هناك مستحيل .. فقط العزيمة والصبر.
- نعم.
- أخرج ما في صدرك .. فضفض علىَّ استطيع مساعدتك.
- كانت أمنيتى أن استكمل تعليمى حتى أتخرج في الجامعة.
- فقط ..؟

- ماذا .. أتتهكم عليّ؟
- حاشا لله .. شوف يا سيدى .. تستطيع أن تلتحق بالمدارس الليلية، وهى كثيرة وليس لها شروط للالتحاق بها .. يمكنك التقدم لامتحان الشهادة الابتدائية نظام الأربع سنوات ثم تلتحق بالمرحلة الثانوية ثم تحصل على التوجيهية.
- والعمل ..؟
- من طلب العلا سهر الليالى يا صاحبى .. اعمل بالنهار وادرس بالليل.
- سأحاول.

ثم قلت مغيراً دفه الحديث: عرفت مما احتوته مكتبتكم اهتمامكم بالسياسة، أليس كذلك ..؟

قال: نعم.

قلت: ليتك تحدثنى عما يحدث الآن في الساحة المصرية.

قال: الأمور ملعبكة تماماً .. استشرى فساد القصر، وازدادت عربدة الإنجليز في القناة، وتصاعدت عمليات المقاومة، للإنجليز، وحياكة المؤامرات ضد مصر.

قاطعته قائلاً: أخشى أن يدبر الإنجليز مؤامرة ضد البلاد في خضم هذه الفوضى.

- مؤامرة .. مثل ماذا ..؟
- لا أعرف بالضبط، ولكنها لن تقبل بالأمر الواقع.

ثم أردفت بعد فترة صمت قصيرة.

اسمع .. لى صديق مثقف. تعرفت عليه في القطار وأنا عائد من البلد، أذهب إليه بين الحين والآخر .. تعال لأعرفك عليه..

- وأين يسكن؟

- في جزيرة بدران .. إنه شخص ودود جداً، وهو من ذلك النوع من المصريين الذى يأسرون محدثيهم ويدخلون قلوبهم بسرعة كبيرة.

لم نكد نقترب من ميدان الأوبرا حتى رأينا ألسنة اللهب تتصاعد في الجو، ودخان أسود كثيف يغطى السماء، والناس يجرون نحو مصدرها وهم يتصايحون: حريقة .. حريقة .. شبرد بيتحرق يا رجالة.

- يا ساتر استر.

- شبرد .. خسارة كبيرة يا خلق.

وانطلقت أجراس سيارات الإطفاء الحمراء الكبيرة وهى تشق الشوارع إلى الفندق، وعند تقاطع شارع فؤاد بشارع إبراهيم باشا كانت أكوام المارة تتزايد والذعر يطل من أعينهم وهم يتطلعون إلى ألسنة اللهب والدخان الأسود يحيط بها .. زعق البعض:

- دا من شيكوريل

- من شيكوريل وشملا وأركو.

- أنا آتٍ من قصر النيل .. الحرائق في كل مكان .. جروبى وكلوب محمد على ومعظم المحلات أكلتها الحرائق هناك.

قال الجميع: مؤامرة .. والله العظيم مؤامرة، لا يمكن أن تحترق كل هذه المحا' في هذه الأماكن المتفرقة، في وقت ،احد إلا إذا كانت هناك مؤامرة.

قال جمال مغتاظاً: لم؟ لمصلحة من يا أولاد الكلاب؟

قلت: ربما لضرب اقتصاد مصر، أو لإحراج حكومة الوفد، أو للسببين معاً

- ومن له مصلحة في ذلك؟
- لا أحد سوى الإنجليز.
- امتلأ نهر الشوارع بسيارات الإطفاء، تخلى الناس عن التطلع إلى ألسنة اللهب، إلى الاشتراك في إخماد الحرائق.

جذبني جمال من ذراعي مبتعداً بي من أماكن الحرائق قائلاً: أعرف شعورك الوطني جيداً، ولو كنا في ظروف عادية لما تخلينا عن واجبنا الوطني، ولكن يجب أن نبتعد من هنا فوراً.

- لماذا ..؟
- لأنه من الممكن جداً أن يقبض علينا رجال القسم المخصوص ونُتهم بالاشتراك في جريمة الإحراق.
- قلت منزعجاً: إيه؟
- لا تتعجب، فإنك لا تعرف رعونة الشرطة هذه الأيام خاصة رجال القسم المخصوص وقسوتهم خلال التحقيق.
- كنت أود الاشتراك في عملية الإطفاء.
- هذا أقل ما يجب، ولكن هيهات أن يصدقوك لو قُبض عليك في مكان الحريق وقلت لهم إنك كنت تشترك في الإطفاء.

عبرنا كوبري الليمون إلى شارع الجزيرة .. فُتح الباب عنه، كان يرتدي روباً منزلياً فوق منامته .. تهلل وجهه فرحاً لمرآنا ..

- أهلا أهلا .. أين أنت يا رجل طوال هذه المدة؟ انشغلت عليك.
- بارك الله فيك.

- اتفضلوا .. اتفضلوا.

قلت وأنا أقدم له جمالاً: أخى وصديقى جمال دهب .. توجيهية .. سيقدم أوراقه للالتحاق بالجامعة هذا العام.

شد على يده محيياً ومشجعاً: ما شاء الله.. برافو يا ابنى .. برافو..

ثم موجهاً الكلام لى: العقبى لك إن شاء الله .. وكما قلت لك رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، فابدأ خطوتك الأولى.

- إن شاء الله.

أخذنا أماكننا في حجرة الصالون الواسعة .. جلست وجمال على الكنبه، ثم جلس هو في مواجهتنا، ومازال لسانه يلهج بالترحيب بنا.

- أهلاً بكما.
- أهلاً أستاذنا العزيز.
- الله على الرسميات السخيفة .. أنا أسمى ميلاد .. ميلاد حنا الراهب.
- المقامات محفوظة يا أفندم.

قالها جمال، وعيناه تنظران إلى موقع قدميه.

قلت بسرعة حتى لا نجد أنفسنا غرقى في بحار كلمات المجاملة الباردة.

- هل تعلم أن القاهرة تحترق الآن؟
- ماذا تقول؟

تساءل والذعر يطل من عينيه.

قلنا: محلات وفنادق وسط البلد احترقت.

- : يا خبر اسود.

وبدا كأنه انهار تماماً، ولم يستطع أن ينطق كلمة واحدة قبل ثلاث أو أربع دقائق .. مرت ثقيلة .. مره كالحنظل .. اعترانا القلق .. قلنا.

- جئناك لنستمد منك العون.

تماسك بسرعة، ثم قال والغيظ يطل من عينيه:

- الإنجليز الكلاب حرقوا القاهرة لإحراج حكومة الوفد الذى أعلنت من جانبها إلغاء معاهدة ٣٦، ورفضها سحب قوات الشرطة من الإسماعيلية، وعدم التصدى لنشاط الفدائيين.

قال جمال: ولماذا لا يكونون اللصوص والدهماء؟

قال الرجل مصراً: الإنجليز وليس غيرهم .. لقد أصدروا تعليماتهم لقائد الشرطة هناك البكباشى مصطفى رفعت لسحب قواته منها، فرفض قائلاً: إنه لا يتلقى أوامره إلا من قيادته، فانتظر الإنجليز من حكومة الوفد أن تصدر قراراً بسحب هذه القوات، لكنها لم تفعل.

- ولكن لماذا أراد الإنجليز أن يفرغوا الإسماعيلية من قوات الشرطة ..؟

- لأنهم رفضوا التصدى للفدائيين.

هز جمال رأسه عدة مرات، ثم قال في هدوء ينم عن الثقة الشديدة: لكن اتهام الإنجليز بحرق القاهرة لا يستند إلى دليل قوى .. إنه مجرد احتمال.

سألته: كيف ..؟

أجاب قائلاً: أما سمعت من مذيع النشرة الآن أن الحريق قد طال بعض ممتلكات الإنجليز وبعض أشخاصهم ..؟ أليس هذا تعبيراً عن

سخط الشعب على احتلال القناة، وما كان من اعتداء الإنجليز على جنود الشرطة فى معركة الإسماعيلية؟ .. كذلك فقد وقعت حرائق أخرى في البارات والكابريهات ومحال اللهو إعلاناً عن سخط الشعب على المستهترين واللاهين، بينما الواجب يحتم عليهم أن ينهضوا لمحاربة المحتلين في القناة.

قال الأستاذ ميلاد: والله كلام معقول وتحليل مقبول،لكن لماذا لا يكون التدبير من جانبهم قم تم بدرجة كبيرة من الذكاء بحيث يبعدون الشبهة عنهم، وإلا فما معنى إحرازهم لهذه الكميات الضخمة من مواد التفجير في صحراء العباسية، والتدريب على إشعال الحرائق.

زحف المساء وبدأ يخلع رداءه الرمادى على الكون، فآثرنا الانصراف في هذه الساعة حتى لا نكون مثاراً للشبهات إذا ما سرنا في طريقنا إلى عابدين، وحسناً فعلنا إذ أن الحكومة قد رأت أن قوات البوليس ليست كافية لحفظ الأمن وإقرار السلام، فطلبت من الجيش النزول للمعاونة في اعادة الأمور إلى نصابها، فلم يقبل ((حيدر باشا)) الانصياع لأمرها إلا بعد الرجوع للملك، وفعلاً نزل الجيش للشوارع وأعاد النظام للبلاد، في نفس الوقت كان مصطفى النحاس يذيع مرسوماً ملكياً صدر بإعلان الأحكام العرفية. قال جمال بعد أن خلعنا ملابسنا وأخذ كل منا مكانه على الكنبه القديمة في الصالة، والتى أخبرتنى أمه أنها ستكون منامتى إذ استحال علىّ مغادرتهم بعد إعلان الأحكام العرفية الذى أعلنه النحاس باشا، أعتقد أن الرجل سيفقد شعبيته بعد أن ابتلع الطُعم.

ولم يكد يهل صباح اليوم التالى حتى سمعنا في نشرة الأخبار نبأ إقالته وتكليف على ماهر بتأليف الوزارة الجديدة.

نفش جمال ريشة وهو يسألنى رأيي فيما توقعه ليلة أمس.

قلت: الأفضل أن تتجه في دراستك إلى الإعلام أو السياسة.

قال: إن أقصر الطرق للعمل السياسى هو الحقوق، لكننى لن أتنازل عن الزراعة.

ثم أردف قائلاً بعد أن شفط ثمالة الشاى من كوبه: سوف أسافر إلى أبى في الإسماعيلية، على أن أرجع في نفس اليوم ليلاً لأقدم أوراقى صباح اليوم التالى للجامعة.

قلت: كان بودى أن أسافر معك، لكننى مضطر للذهاب إلى العمل حالاً، ثم أذهب في المساء إلى عمتى بحرية النور لفرش الحجرة التى أستأجرتها لنا كما أخبرتك أمس.

* * *

أهلاً حمد.. أوحشتنى كثيراً.. متى جئت من العزبة؟

- ليلة أمس .. أين عمك دهب؟ لماذا لم يجىء معك؟
- عرفت من ولده جمال أنه سافر إلى أخيه في الإسماعيلية، وسوف يسافر إليه جمال اليوم.
- هل تعتقد أنه سيعود للعمل عند هذا الرجل؟

ولما لم يسمع منى إجابة على سؤاله قال هامساً: كان الجرح الذى أحدثه هذا الجلف غائراً، ولا أعتقد أنه سيبرأ منه بسهولة.

قلت: لقد ظل طوال الطريق صامتاً، وكان يزفر ألماً، حتى خلته يحترق من داخله ثم سألته عن ذلك الفلاح المسكين الذى فقد ابنه تحت سنابك الخيل، فقال وكل علامات الأسى قد تكومت فوق وجهه وغلفت أحبال صوته:

لقد قتلوه .. علقوه من ساقيه بالحبال اللوفيه الخشنة في ساق نخلة وتركوه حتى مات، وأجبروا جميع الفلاحين على الذهاب لمكان النخلة لمشاهدته.

سألته: من الذى علقه، ولماذا ..؟

قال بعد أن تلفت يمنة ويسره وغلّق الأبواب: صحيح أنهم لم يجيئوا بعد من العزبة، لكن الاحتياط واجب .. لقد فعل ذلك العمدة ورجاله، شيخ البلد وشيخ الخفراء والخفراء .. زبانية الباشا الأحمر .. أما لماذا، فلأن حقول القمح في العزبة قد احترقت عن آخرها.. زعق الرجل وهم يقودونه إلى النخلة: لن يشفى غليلى حرق القمح، لن يكون مقابل ولدى .. اتركونى أيها الخنازير لأقتله هو، أو أقتلها هى لأحرق قلبه عليها.

وقد ظل يردد هذا الكلام في ثقة دون خوف .. ظهرت الفرحة على وجوه الفلاحين وهم يسمعونه يردد هذا الكلام .. ودوا لو يصفقون له لولا خوفهم من البصاصين المنتشرين في كل مكان.

قلت فرحاً: برافو والله .. سيكون هذا الفلاح رمزاً لمقاومة الظلم.

وبعد أن ساد بيننا الصمت لفترة سألنى قائلاً: ولكن .. تُرى أين سيعمل العم دهب، مع العلم بأنه لن يجد عملاً بنفس الأجر الذى كان يتقاضاه عند هؤلاء الناس.

قلت: الذين على شاكلته لا تهمه المادة بقدر الحفاظ على الكرامة.

ثم سألته عن أخبار الباشا ..

قال: لم يكف جرس الهاتف عن الرنين، كانت معظم المكالمات من القاهرة، وبالأمس جاءه أحد الخواجات من الإسكندرية بعد سفركم مباشرة وأقام بالقصر يومين، كانا يتهامسان دوماً وهما جالسين في البهو، وسمعتهما ذات مرة يتفقان على أن يقوم هذا الخواجه بالسفر إلى فرنسا لإيداع مجوهرات ونقود خاصة بالباشا في أحد بنوكها بعد أن ينتهى من بيع أملاكه في القاهرة والعزبة.

قلت وأنا أهز رأسى: يبدو أن أموراً كثيرة ستحدث في البلاد في الفترة القليلة القادمة.

سألنى: إلى الحد الذى يتنازل فيها عن أملاكه بالبيع؟ طيب .. إذا فرض ولم يحدث ما توقعوه ..؟

قلت: لن يعدموا طريقة للعوده وإستعاده أملاكهم، خاصة الأراضى الزراعية التى حُرم منها الفلاح منذ عصر محمد على.

* * *

لم أكد أدخل حجرة عمتى بحرية النور حتى ناولتنى مظروفاً مغلقاً وهى تقول: أحضره عمك عبدون أمس من المقهى .. فضضته بلهفة، فهو أول خطاب يحمل مظروفاً بأسمى .. تقافزت عيناى فوق الكلمات بلهفة بعد أن قرأت اسم أمى في آخر الخطاب.

أولادنا الأعزاء

بعد كثير من التردد في موضوع السفر إلى بر مصر للعيش معكم رأينا أن نبقى هنا، خاصة وأن المصاريف هنا بسيطة، وفى نفس الوقت رغبتنا في التواصل مع أهلينا وذوينا الذين نعيش بينهم بصفة دائمة، خاصة وأننى أرى أن تنشأ أختاك هنا بين ناسهم وأقاربهم، كذلك، كذلك بالنسبة لكم يمكنك وإخواتك الحضور إلى البلدة كلما سنحت لكم الفرصة حتى تتاح لكم فرصة إقامة العلاقات والصلات الطيبة مع أقاربكم وذوى أرحامكم، كما أن في بقائنا مصلحة ندعوا الله أن تتحقق قريبا حيث علمنا أن الحكومة سوف توزع الأراضى المستصلحة في مشروع الدكة وربما نتمكن من الحصول على فدان أو حتى نصف فدان نتعيش من ريعة، وقد يكون هذا حافزا لكم للحضور إلى البلد والعمل في الزراعة، وكذلك مزاولة أى عمل آخر إلى جانب الزراعة، مثل التجارة أو مراكبيا أو العمل في البوستة السودانية. أما بخصوص الحجرة التى استأجرتموها في شركس فأرى أن تقيموا بها أنت وأخوتك، على أن تقوموا بخدمة أنفسكم، حتى لاتكونوا تحت رحمة أحد، مع ضرورة الاحتفاظ بعلاقاتكم الطيبة مع جدكم وأعمامكم وعماتكم، وأرجو أن تشرحوا وجهة نظرى لعمتكم بحرية النور واشكروها على شعورها الطيب.

وبلغوا سلامى وسلام أخواتكم لأعمامكم وجدكم وعماتكم وكل من يسأل عنا، ومن هنا أعمامكم وخالاتكم وكاتب هذا الخطاب دهب عقيد ناظر المدرسة وأولادة.

لما عرفت عمتى بحرية النور بما جاء في خطاب أمى ابتسمت وقالت: هذا رأى أمكم، لكنى لن أترك أولاد أخى يطهون طعامهم

ويغسلون ملابسهم بأنفسهم.. يا عيب الشوم.. هل يمكن أن يحدث هذا وأنا أعيش معكم في نفس البلد..؟!

لم يكد قرص الشمس يرحل غربا حتى كانت قدماى تجريان عبر الدروب الواقعة بين شركس وعابدين، ما أن طرقت باب شقة العم دهب حتى جاءنى صوته من الداخل..طيب.

أخذنى إلى حضنه، هاتفاً.. أهلين.. أهلين ولد أخوى.. وحشتنى جدا والله.. تعال، وجاءت دهيبه أم جمال وسألتنى عن حالى:

إنا هال.. تيبرى أنديتو؟

قلت ضاحكا: همدو لله، ثم أردفت هامساً للعم دهب... إنجدنى بالكلمات التى أتعثر فيها.

قال لى: تعرف أن إصرارها والأخريات على التحدث بالنوبية؛ مع أبنائها والآخرين؛ هو الذى سيحافظ على اللغة من الانقراض الذى خشيناه عند مجيئنا لمدن الشمال.

جاءتنا بالشاى وبينما كانت تصبه في الأكواب، نظرت العم دهب..وجدته يتمتم بكلمات غير مسموعه وهو يقلب كف يمينه.. ترى فيم يفكر..؟

إية يا امبنا..مالك؟

جرتة كلماتى من بحار غاصها بمفرده ..

قال منتبهاً: هاه ..؟ لا .. أبداً.

وانتظر حتى انصرفت زوجته ليقوم ويجلس بجوارى هامساً: تعرف .. لقد سافرت إلى الإسماعيلية لأتطوع في صفوف الفدائيين.

نظرته في دهشة قلت وقد علقت عينى إلى أعلى راسى. لكن جمالاً أخبرنى أنك سافرت إلى أخيك في الإسماعيلية.

قال هامساً: الحقيقة هى التى أخبرتك بها.

لم أشأ أن أعلق حتى أترك له الفرصة للاسترسال ..

قال آسفا: لكنهم ردونى خائباً وإن كانوا قدموا لى شكرهم وتقديرهم على وطنيتى.

- لكن لماذا لم يقبلوا انضمامك لهم؟

- لقد قالوا لى إن وراءك مسئولية كبيرة، نرى أن تضطلع بها، فهى لا تقل أهمية عن المسئولية التى آلينا على أنفسنا تحقيقها.

- كلامهم صحيح، فإن مسئولية البيت والزوجة ورعاية ابن يافع في سن المراهقة لا يقل عن مسئولية تحرير الوطن من المستعمر، فكل هذه الأهداف يصب في بوتقة بناء الوطن.

أومأ برأسه وهو يردد: حتى أنت تقول ذلك؟

قلت: وماذا انتويت يا عم دهب؟

قال: شوف يا سيدى.

وراح يتكلم بحب، وكأن عقدته الذى تسبب فيها الرجل التركى قد انحلت .. قال:

سآخذ أم جمال ونسافر إلى البلد، ونعيش هناك حتى يحين الأجل .. فقد ثبت بالدليل القاطع المثل القائل: ((اللى يطلع من داره يتقل مقداره)). وقد رأيت بنفسك ما حدث لى لمجرد أننى ظننت خيراً في رجل كان يجب أن أتبين خسته ووضاعته، لقد استنكر علينا أن نعلم أنفسنا

لمجرد أن لوننا أسود .. لقد قال لي في معرض كلامه يا بربري .. الا ترى أنه لم يكن ليقولها لو أن طالب الوساطة كان أبيض البشرة، وربما لسعى إلى مساعدته وألحق ابنه بالجامعة، حتى لو لم يضح بأرضه ورزقه ورزق عياله.

سألته: معنى ذلك أنك انتويت الاستقرار هناك؟

قال: وأستصلح أرضاً بعيدة عن النهر، أكد وأتعب في حرثها وزرعها حتى أجني ثمارها، وأكون سيد نفسي.

سألته: وجمال ..؟

قال محتداً: جمال .. جمال .. ماله؟ لقد صار رجلاً يمكنه الاعتماد على نفسه، وقد تحدثت معه ليلة الأمس في هذا الموضوع .. سوف يقيم في هذه الشقة، ويبحث عن عمل بعد الظهر، ليصرف علىنفسه.

سألته ثانية: ولكن لماذا قررت العودة ..؟

لأنني وجدت أن العيش هناك أفضل، بين أهلي وعشيرتي وناسي .. الجميع سواء، وإن شاء الله سأحاول، كما قلت لك: أن استصلح أرضاً وأزرعها وآكل من ريعها، وأنأى بنفسي عن خسة بعض الباشوات وأمزجتهم المتقلبة وتعاليهم علىالناس، وحتى لو فرض ولم أستطع أن أستصلح أرضاً لأزرعها، يمكنني أن أعمل في أسوان أو الشلال، وأفتح محلاً في النجع لبيع الغلال أو أي شيء وبعد أن أستقر هناك لن أدع مجالا إلا وطرقته لاستعادة حقوقنا التي أكلتها علينا حكومات الملك منذ إنشاء الخزان.

ثم بعد فترة صمت التقط خلالها أنفاسه قال: اسمع .. تستطيع أن تقيم هنا مع جمال .. حاول أن تلتحق بالمدارس الليلية، وتسهرا سوياً في استذكار دروسكما .. سيكون في ذلك حافزاً على المنافسة ... أنا واثق أنكما ستكونان على مستوى المسئولية ... أليس كذلك؟

أى قوة تكمن في هذا الشيخ .. يحد هدفه ويخطط جيداً لتنفيذه لقد حدثنى منذ أيام فقط عن العودة إلى النوبة، وضرورة التعليم لبناء الإنسان المتحضر ليبنى مجتمعه ويطوره ... الغريب أن الكثير من آرائه الخاصة بالإقامة في النوبة اتفقت مع آراء أمى التى سردتها في خطابها ... هل هذا من قبيل المصادفة ...؟ أم أن هذا الجيل من ناسنا يشتركون في كثير من الصفات العقلية، حتى أنهم يتفقون في طريقة التفكير في الأمور المتعلقة بالعودة إلى الأرض التى ولدوا عليها وشبوا فوق ثراها ..؟

- إيه ياذا النون ... أين ذهبت؟

- أفكر فيما جاء في خطاب أمى الذى وصلنى ليلة أمس .. تصور أنكما تتفقان تماماً في موضوع العودة إلى النوبة وزراعة أرضاً والأستقرار فيها و..

أطلت من فيه ابتسامة غابت كثيراً عن وجهه ثم قال: يا ولدى هذه أرضنا .. أبداً مانتساها ولا نسلاها .. الواحد منا مهما لف ودار لابد عائد لها، وهذا ليس تفكيرى وتفكير أمك وحدنا، بل تفكير كل النوبيين، وأنت ذاتك بعد أن تسافر إلى هناك مرة أو مرتين وتعيش فيها بضعة أيام ستجد أن الحنين سيجرفك لتعيش هناك بصفة دائمة.

قلت وأنا أتطلع إلى ساعة الحائط: أليس غريباً أننى لم أسألك حتى الآن عن جمال؟ لقد ظننت أنه سيجىء مبكراً ...؟

ضحك وقال: تصور .. حسبتك أنك جئت لتراني،

قلت مستدركاً: ... لقد عرفت بأمر سفرك إلى الإسماعيلية من جمال، وربطت بين هذا السفر وما كان من أمر الباشا، وسكنني القلق عليك منذ علمت بسفرك، فجئت لأطمئن عليك فعلا.

قال: ولم كل هذا الآنزعاج .. أليس من حقك أن تجيء للسؤال عن جمال؟ إن أعماركما متقاربة، وأنكما من جيل واحد، وربما اتفقتما في كثير من الميول والهوايات.

كل مرة ازداد أعجاباً وإكبار لهذا الرجل وطريقة تفكيره، ولا أدرى كيف أطاع نفسه وعمل في خدمة أناس هو يفكر – على الأقل – بطريقة أكثر تحضرا منهم.

لم أحر جواباً على تعليقة فأضاف قائلاً: جمال يا سيدى سافر إلى الإسماعيلية.

سألته: ألم يأت بعد ..؟

أجاب قائلاً: ربما يجيء مساء اليوم بعد أن بات ليلة الأمس مضطراً عند عمه.

*　　*　　*

بعد أقل من شهر كان العم دهب والخالة دهيبة قد أعدا عدتهما للسفر إلى قريتهما الهاجعة هناك جنوب الشلال .. امتلأت ردهة الشقة الصغيرة وحجراتها بالمقاطف الخوص الملونة والتي ربطوا آذانها بقطع القماش الأخضر ليميزوها عن غيرها ... خاطوا فتحاتها بقطع القماش القديمة وكتبوا عليها اسم العم دهب، بعد أن ملأوها بأقماع

السكر وقطع الحلوى وحبات البرتقال وقوالب الحلاوة الطحينية وأمتار الباتستا والبوال ومناديل الرأس والطرح السوداء الشفيفة، آخذين في الحسبان كل من سيجيء إليهم للسلام .. كل واحد أو كل واحدة يمدون له أيديهم بالهدية المناسبة .. حفنة شاى أو قطعة من قمع السكر أو قطعة قماش، وهى أو هو يجيء بهديته ... حَمَل صغير أو ماعز أو زوج من دجاج أو ديك رومى وبعد السلامات، وحمد لله على السلامة وحبيبة، يسألون عن ذويهم الذين غيبتهم مصر المدينة في أغوارها، فتباعدت رسائلهم .. كيف حمدون، وولدنا سلوم، وأخبار بازيد ..؟ ليه ما يرسل خطابات! للحين ما اشتغل ...؟

أووه دهب هوى .. تَيبْرىَ .. أَنا تُوّتِي نَالْمَا ... تَيبْرىَ ..؟ أَشجْلّينَا واللا آجيِ ..؟

- نعم .. لقد رأيته أول أمس في الجمعية، وهو بخير، ويعمل لدى أسرة أجنبية.

وتظل الدار تعج بالداخلين والخارجين لأكثر من أسبوعين، وتمتلئ حظيرتنا الماشية والدواجن بما جاء به ناس النجع والنجوع المجاوره، ولا تخمد النار في حجرة الكَلْ ديو، ويتسرب الدخان من الطاقات بأعلى الجدار طوال الليل والنهار.

جاءت سيارات الأجر ة ووقفت أمام الدار ... سدت شارع البلاقسة حملت صينية الشاى ونزلت بها إليهم ... فتح الله وبشرى وإبراهيم ... كلهم من قرية شمالية .. عرفتهم من الحى الذى تفتحت عيناى عليه ... سكنه أبواى منذ جاءا من البلدة .. جاء جمال وباقى

الشباب بالمقاطف ولفائف السجاجيد والبطاطين الرمادى والأكلمه الرخيصة، امتلأت بها شبكات العربات الثلاث.

- الله يخلى الشباب.
- الله يعطيهم العافية.

قفز البعض إلى القطار الرابض على الرصيف كثعبان أسطورى ... ناولهم البعض الآخر المقاطف واللفائف الكبيرة .. رصوها فوق الأرفف .. جلس العم دهب على مقعد خشبى بجوار نافذة تكسر زجاجها وجلست زوجه قبالته .. أطلق القطار صفيرة المدوى .. أسرع المودعون بالسلام عليهما وهم يدسون في يد كل منهما ورقة مالية صغيرة وهم يرددون: آديلا ...

قال لى وهو يشد على يدى: شد حيلك، وكما قلت يمكنك أن تقيم مع جمال .. ستشد من عضده ويشد من عضدك.

لوحت له بيدى مودعاً وأنا أردد: كن مطمئناً .. .. طمئنى عليك أولاً بأول.

* * *

هذه هى حكايتى من طق طق حتى مجيئى إلى هنا ... فما رايك يا صاحبى ...؟

قال: يااااه ... كنت أظن أننى وحدى الذى خضت غمار هذه التجربة.

سألته مندهشاً: وحدك؟ ماذا تعنى؟

أجاب: يبدو أن النوبيين كلهم أو معظمهم عاشوا هذه القصة، وأنا واحد منهم.

- نعم ..؟! ولكن كيف صرت طالبا جامعياً؟

– بعد أن تركت المدرسة بعدة شهور، قابلنى أحد زملائى، وكنت ارتدى الملابس المزيتة .. انزعج لذلك، وسألنى:

– ما هذا ...؟

– قلت له: مضطر يا صاحبى .. مات أبى واضطررت للانسحاب من المدرسة والعمل في ورشة إصلاح سيارات لإعالة أمى.

قال: من حسن حظك أن إدارة الأزهر تقبل الطلبة النوبيين بمعاهدها وكلياتها، وتعاملهم معاملة المبعوثين، تعلمهم وتمنحهم مكافأة شهرية تعينهم على الحياة.

سألته متلهفاً: كم ..؟

لما قال لى خمسة جنيهات كدت أفتح الباب وأجرى، وأظل أجرى حتى أدخل الجامع الأزهر، لكنى تماسكت وقعدت على الكنبه، وشربت كوبين من الماء، ثم تساءلت في دهشة ...

ماذا قلت يا أخ عبد الدايم ...؟ أرجوك .. ومن فضلك واحدة، واحدة.

استغرقه الضحك حتى أرعش جسده، وراح يخبط كفا بكف وهو يردد: والله كما قلت لك.

قلت في نفسى .. يا خساره .. إن مجرد التعبير عن فرحتى لم أستطعها، والفرصة السانحة للتعليم ستضيع، فأى نحس ذلك الذى يطاردنى؟! أدرك عبد الدايم ما يدور في خلدى، فقال متسائلاً:

أتريد أن تلتحق بالأزهر؟

قلت: كيف وأنا مطارد، وإقامتى محددة في شقتك؟

قال: اترك لى هذا الموضوع .. اعطنى بياناتك وسأتولى أنا أن أقدم طلباً باسمك غداً وربنا يعمل ما فيه الخير.

في صباح اليوم التالى وقبل أن يغادرنى عبد الدايم إلى كليته طُرق الباب طرقات قوية ... سريعة ومضطربة.

يا ساتر يا رب .. يا ساتر.

صاح عبد الدايم مرتعباً: من..؟ من بالباب؟

- أنا سكورى ... إفتح

(سكورى ..؟! يا نهار اسود .. ماذا جاء به؟ هل عرفوا مكانى، فجاء يخطرنى بالهرب، أم ماذا وراءه؟)

سألت عبد الدايم: من سكورى هذا ...؟

قال: ابن عمى.

نزلت إجابته برداً وسلاماً على قلبى ... إذن فهو غير سكورى الذى عرفته، لكنى وجدته أمامى ... هوهو، بشحمه ولحمه. لكنى افتقدت بسمته التى لم تكن تغيب عن شفتيه، ضاعت في خضم الحزن الساكن في عينيه .. فجأة وجدته ينهنه ... فرت من عينيه الدموع ... شلتنا المفاجئة .. حاولنا أن نعرف السبب.

- إيه يا عم سُكورى ... ماذا حدث؟

- جمال.

- جمال ..؟ من جمال؟

- جمال دهب مات.

صرخنا معا: ماذا تقول؟

قال: تطوع في صفوف الفدائيين منذ شهرين .. استشهد في عملية الهجوم على معسكر الإنجليز في السويس.

شعرت أن الأرض تميد بى .. وتلقى بى إلى واد سحيق لا أهل فيه ولا رفيق، تجمعت سحب الدموع في عينى، كل المرائى صارت غائمة، وسمعت قلبى ينوح عليه .. آآه .. تتقاطر منه الدماء الحارة إلى أحشائى فتحرقه .. يا حبيبى يا جمال .. أقسم أنى لو كنت معك لافتديتك .. أحوطك بجسدى، فأمنع عنك رصاصهم .. آآه .. إهئ إهئ.

- شد حيلك .. لن يجدى البكاء الآن.

كنت قد أهملت حلاقة ذقنى منذ أن جئت إلى هنا وشاربى لم يعد يبين من وجهى غير عينى وشفتى .. استبدلت ثيابى ولبست حذائى، وسمعت سكورى يهمس لعبد الدايم: إنهم يبحون عنه في كل مكان، فلا تدعه يخرج .. طمأنه عبد الدايم بأنه لن يتركنى أخرج.

لكنى يجب أن أذهب معهم .. أود أن أراه ... أن أحتضن جسده ... أن ألقى نظرة أخيرة على وجهه قبل أن يغيب عنى إلى الأبد.

قال سكورى: سنذهب إلى الجمعية في عابدين وبعدها نسافر إلى السويس.

قلت: ولماذا لا نسافر رأساً إلى السويس؟

قال: الأفضل أن تبقى هنا، فإن أعينهم مازالت تبحث عنك، وقد وعد الباشا مخبرى الداخلية بمكافأة سخية إذا قبضوا عليك، فحكم عقلك يا ابن الحلال ولا تلق بنفسك إلى التهلكة.

وتركانى وحدى وخرجا، فوجدت نفسى أمسك ورقة وقلماً وتذكرت كلامه عن السفر إلى النوبة بعد تخرجه في كلية الزراعة،

ووجدت القلم يجرى سلساً فوق السطور .. سأشد الرحال إلى هناك ... حتماً سأعود، فالأرض هناك تناديني ... أكاد أسمع نشيدها اليومى ...

تعالوا إلى لتعمروني ... مسامى تحتاج لعرقكم ليتفجر النبت ... ستنمو الأشجار ويزدهر الثمر، ويعلو النخيل ويكون الرطب .. الأبريمى والسكوتى، لا يحدها شيء سوى السماء عندما تلتقى بها هناك عند مرمى البصر .. احفروا في باطنى الآبار، ومن بحر النيل شقوا الترع ليجرى ماؤها المشبع بالخير يسقى جوفى العطشان، وإذا تعذر ذلك اعصروا عرقكم لتسقى شلالاته عروقى حتى ترتوى، فينبت من جديد النبت، وترجع كل الطيور المهاجرة من مدن الشمال خطافة الرجال، وتفتح الدور الموصدة، كل الدور أبوابها، وتدب أقدام الحياة فوق الدروب شبه الميته.

كانت بسمه واهية تتسلل في حذر إلى شفتى، ووجدتنى أمسح دمعى المنهمر على خدى. على الرغم منى مقيداً بأغلال الحزن.

أسندت رأسى بكفى، وتركت لعينى العنان فبكتا ما فيهما من دموع.

شعرت بثقل في رأسى ودوار ... تركته يسقط فوق صدرى .. لفتنى دوامات النوم .. أخذتنى إلى أعماقها .. انتشلنى صرير الباب، وجدته أمامى واقفاً ينظرنى في تمعن، ثم قال: اسمعنى زين يا أخى .. منذ خلق الله الأرض وما عليها والناس يموتون، ولولا الموت ما كانت الحياة، فهذه سنة الله في خلقه، ولم يكتب الخلود إلا لنفسه، ولو خلد واحد من البشر لتشابه في صفة البقاء مع الله، وهذا محال وبموت الناس لم تقف عجلة الحياة، فهى دائرة ومستمرة، أبينا أم قبلنا ...

إذن أسرع ونفض عنك غبار الحزن، فالبكاء لن يجدى شيئاً، وأنت شاب صغير وأمامك مستقبل كبير، ولا أعتقد أن طموحاتك سيكون لها حدود، ولن تحقق تلك الطموحات إلا بالعلم الذى يجب أن تتسلح به، لذا كان من الضرورى أن تبدأ من غد المذاكرة، سأشترى لك كتب الإعدادية من سور الأزبكية وكتب الأزهر من الصنادقية وستجدنى رهن إشارتك في أى مادة تصعب عليك، سواء الأزهرى أو غيرها لأشرح لك ما صعب منها أو غمض.

- أذاكر المواد الأزهرية والثقافية في آن واحد؟
- العزيمة والمثابرة يلينان الصخر.

استغرقنى التفكير في كلام عبد الدايم، وانتهيت إلى أن الأيام، حلوة كانت أم مرة ستمر، اجتهدت وسهرت الليالى أم تكاسلت وغرقت في عسل النوم ... ستمر، فلم لا أكد وأكدح، لأجنى في النهاية ثمار كدى وكدحى، وأحقق ما كان يريد أبى أن يحققه لى وأكثر.

كان التعب بادياً على وجهه المعفر والإرهاق ... أنسانى كلامه عند دخوله أن أسأله عما تم بالنسبة لجثمان الشهيد ... قال وهو يدس قدميه في مداس البيت ويرمي بالمنشفه على كتفه .. تمكن الفدائيون من نقلها إلى القاهرة في سيارة لنقل الأثاث ... انتظرناها على مشارف الهايكستب، ثم ركبنا معهم إلى النادى النوبى، ومن هناك خرجت في مظاهرة تليق بشهيد بذل روحه من أجل تحرير وطنه.

التقطت الصحيفة التى جاء بها من الخارج من فوق المنضدة، بعد أن أسلم قياده بسرعة غريبة لسلطان النوم ... لم أكد أرفعها أمام ناظرى

حتى سقطت منها ورقتان في حجم الفولسكاب ... ترددت قبل قراءتهما ... أدركت من العنوان الذى يتصدر الصفحة الأولى (منشور) عدم خصوصيتها ... تركت الصحيفة جانباً ورحت ألتهم ما جاء فيهما ،

في اليوم التالى لحريق القاهرة أقيلت وزارة الوفد ، وعهد الملك إلى على ماهر بتأليف الوزارة الجديدة، وهكذا انتهز القصر الفرصة التى رآها مناسبة وتخلص من وزارة النحاس.

ولكن ماذا أراد الملك من إقالة وزارة الوفد ، وما سبقها من تعيين حافظ عفيفى رئيساً للديوان دون الرجوع للحكومة أو البرلمان، وتعيين عبد الفتاح عمرو مستشاراً للشئون السياسية؟

إننا نرى أن ذلك ليس ألا استكمالاً لخطة قصد من ورائها إفساد معركة القناة.

(يا نهار أسود ومنيل ... إذا كان هذا هو الهدف فعلاً فلماذا أهدر إخوتنا دماءهم الذكية في مقاومة جنود الاحتلال؟

(يا خسارة دمك يا جمال .. خسارة دمك وكل أصحابك من شباب مصر الأطهار ... آه .. يبدو أننا يجب فعلاً أن نتخلص من الملك أولاً ، حتى يسهل علينا التخلص من الاستعمار .. لكن كيف ...؟ لنفكر في ذلك بعد الانتهاء من قراءة ما جاء بالورقتين).

وبذل على ماهر جهده لتهدئة الحالة ، وتمكن كذلك من تهدئة معركة القناة، ووقف تأييد السلطات الرسمية للفدائيين، وبدأ من جهة أخرى الاتصال بالبريطانيين لاستئناف المفاوضات التى حاول أن يدخلها مؤيداً من البرلمان، إلا أنه اضطر لتقديم استقالته للملك ولم يكن قد

مضى شهر واحد على وزارته، وذلك بعد أن اعتذر السفير البريطانى لبدء المفاوضات وعدم استجابة الملك لمقابلته، فعهد إلى نجيب الهلالى بتأليف الوزارة، وقد بدت سياسة الهلالى من خطاب تشكيل الوزارة الذى حشاه بالطعن في النواب والشيوخ الوفديين وغير الوفديين، سواء كانت تهماً صحيحة أو ملفقة.

إن وزارة هذا القمىء كانت فاقعة اللون من حيث اتجاهها إلى القصر، وأن ما جاء بالخطاب ليس إلا نتاج انحرافات وتيارات شخصية، وليس نتاج الإدراك السليم للموقف الذى كانت البلاد تجتازه.

إن الشىء المؤسف في موقف هذا الرجل هو الطعن القاسى والتهم الملفقة التى وجهها للحزب الذى ألغى معاهدة ٣٦، ودعا الشعب إلى الجهاد، ووقف في آخر أيام وزارته موقف العناد والتحدى للقصر، فترك المظاهرات تهتف ضده، أطلق حرية الصحافة إلى أقصى حد ممكن حتى ما قبل حريق القاهرة.

ومن هذا كان خطاب تشكيل الوزارة الهلالية بمثابة تحد لشعور الشعب فقد كان واضحاً أن معركة القناة فشلت أو تحولت لأسباب منها .. موقف السراى، وتعيينها حافظ عفيفى وعبد الفتاح عمرو، وسيطرتها على الجيش، والتمثيل الخارجى من تحول معركة القناة؛ متى نجحت؛ من الإنجليز إليها.

ومع قيام هذه الحالة طبقت الأحكام العرفية بصورة لا مثيل لها، إذ قيدت حرية الصحافة بقسوة. وقضى على أهل القاهرة أن يأووا إلى بيوتهم مبكرين، وعلى الجملة تحولت مصر إلى سجن كبير.

إننا لنعجب من أن يقدم رجل شديد الذكاء كالهلالى على تولى الحكم في هذه الظروف، وعلى مخاصمة الكتلة الشعبية والائتمار بأمر السراى، كيف كان يتصور أنه سينجح، وينجح في ماذا ..؟ في كيل الاتهامات لحكومة الوفد ..؟ أم في إذلال الشعب وإحكام قبضته عليه، ونقله من ظلام إلى ظلام أشد ...؟ إن الأمور تنزلق من هاوية إلى هاوية أكثر عمقاً وظلاماً منذ حريق القاهرة – يناير عام ١٩٥١ –، ولكن يبدو أن وضع حد لها بات أكثر مما يتصور، ولكن تُرى أى نهاية يمكن أن تكون ...؟

وجدت نفسى غارقاً في بحار من الظلمات، فليس أسوأ من أن ترى وطنك يغرق، ويشترك مواطنوك في إغراقه .. لماذا انجرف الوفد وهو صاحب الشعبية الجارفة في استرضاء الملك ..؟ لماذا لم يوقفه عند حده ..؟ ألم يكن واثقاً من وقوف الشعب معه لو فعل ..؟ لو حاولنا أن نبرر هذا الموقف للأحزاب الأخرى التى لا تعتمد على التأييد الشعبى فإنه ليس هناك مبرر لحكومة الوفد الذى مازال موقفها من القصر؛ قبل حريق القاهرة؛ يزيد من حيرتى.

وبينما أنا مستغرق في التفكير فيما جاء بالورقتين ألح على رأسى سؤال، بينما كانت عيناى ترنوان إلى الكلمة التى تصدرتهما .. منشور. من الذى كتبه؟

عبد الدايم أم غيره؟ ولماذا لم يمهره بتوقيعه؟

كان الصمت يرين فوق صدر الكون حولى، والنوم يملأ جفونى فأحس بثقلهما، ولم أفلح في مقاومته، على الرغم من الرغبه التى

تملؤنى بالقراءة والاستزاده، فلم أجد بدا من اضع رأسى فوق الوسادة وأنزلق إلى جب النوم الرحب.

* * *

جاءنى وفرحة الأطفال في عينيه ... كاد يثب وهو يزف إلى خبر إدراج إسمى ضمن من سيؤدون الامتحان أمام لجان قبول الطلبة الجدد بالمعهد الدينى ... أمدنى بألفية ابن مالك، وفقة العشماوية على مذهب المالكية، وطلب منى حفظ الأبيات الأولى من الألفية، وقراءة الفقه وفهمه حتى تشفع لى إجاباتى في قبولى بالسنوات المتقدمة بالمعهد.

لم أنم من فرحتى حتى أتيت على كتاب متن العشماوية في فقه السادة المالكية، وحفظت أكثر من عشرة أبيات من ألفية ابن مالك مع شرحها: كلامناً لفظ مفيد كاستقم.

اسم وفعل ثم حرف للكلم

ولكن .. كيف سأذهب إلى الجامع الأزهر لأداء الامتحان ..؟ شغل السؤال رأسى وكدرنى، فلم أستطع أن أستوعب شيئاً مما أقرأه، وحمدت الله أن السؤال لم يطرأ على ذهنى قبل أن أبدأ المذاكرة، وإلا لما دخل رأسى كلمة واحدة مما قرأت.

قال لى عبد الدايم وهو يربت على كتفى لما صارحته بهمى: ولا يهمك، سأحاول أن أتفق لك مع أحد السائقين ليتولى أمر توصيلك من البيت وإليه ... اطمئن واشغل نفسك بالمذاكرة فقط.

أو مأت برأسى موافقاً وشكرته كثيراً.

لم تسع الدنيا فرحتى عندما ركبت سيارة الأجرة لتجتاز بى شوارع القاهرة الهادئة حتى وقفت أمام الجامع الأزهر .. الميدان واسع

رحب .. وعلى اليمين جامع قديم، عرفت أنه لمحمد أبو الدهب، ومبنى على الطراز الإسلامى شمالاً عرفت أنه لمشيخة الأزهر ووراءه تعلو مئذنة قلمية رفيعة إلى عنان السماء ومسجد كبير، فسيح قيل أنه للأمام الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكتبات كثيرة لبيع الكتب الدينية ومحلات العصير والفطائر والمطاعم وأناس تنطلق وجوهم بالطيبة ورجل يحمل على ظهره قربه ماء وفى يديه أكواب من المعدن الأبيض .. صغيرة .. لامعة .. يطلق حنجرته فيخرج صوته حلوا رائقاً: سبيل ميه ..

خلعت صندلى ووطأت قدماى البلاطات المربعة الكبيرة في صحن الجامع العتيق .. على يمينه الكثير من الأروقة، وعلى الشمال الميضأة، اتجهت يمنياً – من باب الفضول – لتلتقط عيناى أسماء الأروقة محفورة بخطوط النسخ والثلث على قطع مربعة من الرخام الأبيض ... رواق المغاربة ... رواق الشوام ... رواق الصعايدة، ومددت عينى إلى ما وراء الأعمدة لتلتقطان طلبة العلم وقد افترشوا الأرض وبين أيديهم كتب قديمة صفراء يستذكرون فيها دروسهم، وفى أركان الأروقة تكومت أمتعة الطلاب وملابسهم.

خفت أن يفوتنى دورى في الاختبارات فجريت إلى داخل المسجد، هالنى اتساعه وتعدد محاريبه وكثرة أعمدته الرخامية، المحلاه بالحلقات النحاسية اللامعة .. جاءنى شيخ ربع، يمسك أوراقاً في يمينه .. سألته عن امتحان الطلبه الجدد .. سألنى عن اسمى .. راحت عيناه تتقافزان في الورق وهو ينطق باسمى في تناغم فريد .. ذا النون يا سيدى .. ذا النون يا حبيبى، ثم قال فجأة ..ها هو .. لجنة رقم ٣ ..

وقفت أمامها طويلاً، حتى نودى على اسمى .. تربعت أمام شيخ جليل الطلعة .. مهاب .. أبيض البشرة، أحمرها .. ذكرنى صفاء وجهه بصفاء وجه شيخى الأول الذى حفظت عليه جزء عم في مدرسة حفيظة الألفية .. سبحان الله .. أيحب الإنسان إنساناً من أول لقاء .. بمجرد أن يتطلع إلى وجهه ..!؟

- اسمك يا بنى؟
- ذا النون
- مذهبك؟
- مالكى.
- كم جزء تحفظ من القرآن؟
- خمسة.
- اقرأ من أول قوله تعالى: ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون .. عقدت ذراعى على صدرى وقرأت حتى قوله تعالى: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم.
- صدق الله العظيم .. ما معنى مبين؟
- بيّن وواضح ..
- ثم سألنى في النحو والصرف، وعقب كل إجابة يقول: ما شاء الله .. علاّمة .. وفى النهاية قال وبسمة فوق شفتيه تزيد من وضاءة وجهه: مبروك .. سنة ثالثة ..

كدت أثب فرحاً .. جريت الى الصحن، فوجدت عبد الدايم ينتظرنى .. زفيت إليه الخبر .. قال فى فرح: تعال .. سوف أكافئك.

واصطحبنى الى شوارع خان الخليلى الضيقة، ثم أدخلنى مطعماً للفول والطعمية وعرفنى على صاحبه .. الحاج شعبان .. قصير .. ممتلىء .. أبيض الوجه، أجعد الشعر، فى نهاية العقد الرابع .. ودود .. مهزار .. ضحوك .. أحسست بميل نحوه فصرت زبونة فى المرات القليلة التى اذهب فيها للدرس، فالخوف من الأعين التى بثها الباشا فى طلبى مازال يملؤنى، فآثرت مذاكرة دروسى التى كان يتحرى عنها عبد الدايم ويسأل عنها زملائى فأذاكرها وحدى دون الذهاب لحلقات الدرس، وكم كانت فرحتى عظيمة؛ لا تعادلها سوى فرحتى بقبولى طالباً فى المعهد؛ يوم ان قبضت أول منحة من الأزهر، وكان أكبر مبلغ أمسكه بيدى حتى ذلك الحين .. خمسة جنيهات كاملة ..!! يا للهول .. خمسمائة قرشاً .. يعنى مصروفى لكم يوم ..؟ كنت آخذ قرشاً واحداً من أمي قبل أن تنطلق قدماى الى المدرسة .. قرش صاغ أحمر منقرش أو أبيض، على أحد وجهيه وجه الملك الشاب .. صاحب الوجه المورد والخدين المكتنزين والعينين الناعستين وفوق رأسه طربوشه الأحمر، وعلى وجهه الآخر ينتصب الواحد فى اعتدال وبجواره الصفر .. عشرة مليمات .. أشترى به كل يوم شقتين .. واحدة فول والثانية طعمية .. أو آكل طبق مكرونة من عم عشرى أحد معالم حارة البيرقدار عند تقاطعه مع شارع قوله ..

خمسمائة قرش يا أماه فى قبضة واحدة أول كل شهر .. أرأيت هذه الأملة؟ ليتك كنت معى لتشاركينى فرحتى التى لا تسعها الدنيا كلها .. لكن مهلاً، سوف أجعلك نعيشنها عندما تتسلمين خطابى المرفق به حوالة بثلاثة جنيهات أول كل شهر، تعرفين أن ولدك .. حبيبك

أصبح يتقاضى مرتباً كبيراً .. سأعوضك عن سنين الحرمان الطويلة التى عانيتها وأخواتى منذ رحيل أبى عن دنيانا ، وستكون سعادتك أعظم لما تعلمين أننى سأتعلم لأنال فى النهاية الشهادة، وأحقق ما كان يأمل أبى أن يحققه فى شخصى .. سأسمع من هنا زغرودة قلبك الذى سيثب فرحاً طوال أيام كاملة .. سأذاكر درسى فى الحجرة التى استأجرناها ليلاً ونهاراً لأعوض السنوات التى حرمت فيها من العلم، وستعرفين أنك انجبت ولداً لم تنجبه امرأة قبلك فى بر النوبة كلها.

لكنى شعرت بالفرحة تخبو فجأة ليحل الرعب محلها ؛ فقد تراءى لى الجسد الغض وقد داسته سنابك الخيل فتهرسه .. يختلط لحمه ودمه الذكيين بالتراب ليصير الكل طيناً .. آآخ .. ينكمش جسدى ويقشعر، وأجرى لأختبىء فى شقة عبد الدائم لعدة شهور، لا يربطنى بالعالم الخارجى سوى الصحيفة التى يجلبها معه ظهر كل يوم، ومذياع كبير يقبع فى أحد أركان حجرته اشتراه من شارع الأزهر بثلاثة جنيهات .. آآه .. مرة ثانية يا هلالى ال ... تشكل الوزارة؟ فى المرة الأولى جثمت على صدر الأمة ثلاثة شهور .. ترى كم شهراً ستبقى هذه المرة ..؟ لم تفعل شيئاً فى المرة الألى سوى أنك حاولت فى وثيقتك التى قدمتها لمولاك أن تظهر الشعب ونوابه بأنهم حفنة من اللصوص والمرتشين والكاذبين والمزورين، تُرى لماذا قبلت رئاسة الحكومة على شعب بهذه الصفات المذمومة؟ ألست معى أن من يحكم شعبا من اللصوص والمرتشين والكذابين والأفاقين لابد وأن يكون منهم .. يتسم بصفاتهم .. أن يكون من عجينتهم .. أم يا ترى يكون ملكاً هبط عليهم من السماء ..؟

ملأنى الغيظ .. تفلت.

*　　*　　*

لم أكد أستلقى على فراشى قبل أن ينطلق آذان الفجر بقليل، بعد ساعات طويلة قضيتها مع الكتب الصفراء حتى هويت الى جب النوم العميق ..

خرج عبد الدايم كعادته فى الصباح ولم أشعر به ولما جاء عصراً فتح الباب بمفتاحه ودخل مندفعاً، يسبقه صياحه .. ذا النون .. يا ذا النون.

تملكنى الخوف .. خلت العسكر يجوبون شوارع الحى بحثاً عن سكنه ليمسكوا بى .. جرى الى المذياع .. أداره .. انسابت موسيقى عسكرية، ثم استدار الىَّ وهو يقول فرحاً .. الثورة التى انتظرناها طويلاً قامت يا ذا النون .. الثورة ضد نظام الحكم .. لماذا لم تفتح الراديو اليوم؟

ألجمتنى المفاجأة ولم أحرك سكناً .. صرخ قائلاً: ماذا أصابك؟ أقول لك إن الجيش قام بثورة ضد نظام الحكم ونجحت ..

إنساب صوت المذيع الدافىء بعد عدة دقائق من الموسيقى العسكرية يعلن قيام بعض عناصر من الضباط الأحرار، على رأسهم اللواء أركان حرب محمد نجيب بالثورة، إذ أطاحت بالنظام القائم .. بالعرش والأحزاب السياسية، فشربوا كأس أخطائهم التى ظلت تترسب فى القاع منذ أول اعتداء على الدستور ارتكب عام ٢٤، فهنيئاً لأبناء مصر ثورتهم التى قامت لتحقق لهم العزة والكرامة، وقد وضعت العمال والفلاحين نصب أعينها لتعيد لهم حقوقاً سُلبت منهم لسنين طويلة.

أقوم الى وسط الحجرة لأرقص وأزغرد وأصرخ فرحاً .. أفتح الباب وأجرى الى بائع الصحف غير خائف من باشا أو من مخبر .. أتناول صحيفة .. تلتهم عيناى العناوين. الأسطر الحمراء الكبيرة .. تطالعنى صورة الضباط الأحرار .. اثنا عشر كوكباً، يقف بينهم كبيرهم بوجهه الأسمر الحلو البشوش .. قرأت عنه كثيراً إبان أزمة انتخابات نادى الضباط ولم أكن قد رأيته .. البسمة الحلوة تعلو ثغره .. شعرت بأنه قريب منى وأنى قريب منه .. أحسست بدفء أبوته فكدت أدخل الى حضنه .. يتأبط عصاه .. فارس نبيل جاء ورفاقه لينقذوا مصر وأبناءها من الطغمة الحاكمة والاستعمار الذى ظل جاثماً على صدورهم لأكثر من سبعين عاماً.

الفرحة تغمر وجوه الناس .. زغردت فلاحة .. تحسست أخرى بطنها المكوره وقالت: والنبى إن جه ولد لأسميه محمد نجيب، ولو كانت بنتا أسميها ثورة .. لم أطق صبراً حتى أرجع لشقة عبد الدايم .. دسست عينى فى السطور الدقيقة ..

سيكون لكل مصرى صوت فى تقرير شئون الوطن، وحقاً دستورياً لا يستطيع احد أن يسلبه اياه، وسيكون لكل منهم حق التعليم المجانى، وسترسى الثورة قواعد العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، سينفتح الطريق أمام الجميع لتولى المناصب الرفيعة، كل حسب كفاءته وإمكانياته الفردية فى القيادة واتخاذ القرار السليم، وسيخرج العاطلون بالوراثة والكسالى ، محدودى الذكاء. من الحسبان.

أين أنت أيها الباشا الآن ..؟ يا من استكثرت على أبناء النوبيين الالتحاق بالجامعة ليظلوا خدماً لكم، ماذا أنت صانع لنفسك الآن ..؟

هل ستحتمى بالملك المخلوع ..؟ أم ستلجأ الى سادتك الإنجليز ..؟ أم ستفر بجلدك من البلاد ..؟

- اعتقال بعض أصحاب النفوذ الذين استغلوا سلطاتهم فى تعذيب الآخرين.
- السجن لبعض الباشوات وأعوان الملك ممن سربوا أموالهم للخارج.
- القضاء على الأقطاع والتخلص من سيطرة رأس المال على الحكم.
- إقامة جيش وطنى قوى.
- تحقيق العدالة الاجتماعية، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة.

قلت لنفسى: وأكيد ستلتفت الثورة إلينا نحن النوبيين الذين ظُلمنا من كل حكومات الملك لتنصفنا، وتقيم لنا المشاريع الزراعية، وتملكنا عدداً من الأفدنة، وتقيم هناك المصانع لاستقطاب الأيدى العاملة وتحقق لها الاستقرار بعد سنوات الشتات الطويلة.

أهداف سامية ونبيلة، والأكثر نبلأ أن لا تألو الثورة جهداً لتحقيقها، خاصة البنود التى تنص على إرساء قواعد الديمقراطية الصحيحة، والعدالة الاجتماعية، وإتاحة فرصة التعليم لجميع أفراد الشعب حتى تنمحى الأمية وإتاحة فرص العمل والكسب لكل المواطنين عن طريقى تخطيط وتنمية الموارد الاقتصادية المتاحة، وتنمية الموارد البشرية .. لو تحقق ذلك ستكون النتيجة وطن قوى يمكنه فى سنوات قليلة أن يحتل مكاناً فى مصاف الدول المتقدمة.

وجدت نفسى بين جموع الشعب التى خرجت بدن اتفاق مسبق ودون ترتيب أو تنسيق فى مظاهرة ضخمة لتعبر عن فرحتها بالثورة التى تجسدت فيها آمالها وطموحاتهم، التى ترجمتها فى سبتمبر ٥٢ بإصدار قانون الإصلاح الزراعى، وتوزيع الأراضى المصادرة من الإقطاعيين على المعدمين، لكل واحد منهم خمسة أفدنة كاملة .. أصبح الأجراء والمعدمون ملاكاً .. ارتفعت الهامات التى عاشت عمرها منكسة، وشلت الأيدى التى سوطت ظهور الفقراء .. كل ذلك أحدثته الثورة فى الشمال، وغداً تتطلع الى النوبيين التى أغرقت مياه الخزان أراضيهم وتقيم لهم المشاريع الزراعية ليعودوا للعمل بالزراعة مرة أخرى وتعوضهم سنين رغد بدلاً من سنوات الفاقة التى عاشوها مغتربين عن قراهم، وتغير من شكل الحياة البدائية بعد طول إهمال.

ولكن لماذا أفرجت الثورة عن كل السياسيين باستثناء الشيوعيين، وهى التى قامت من أجل إقامة حياة ديمقراطية انتظرناها طويلاً ..؟

يبدو أننى كنت أفكر بصوت عال، حيث سمعت عبد الدايم يجيبنى قائلاً: لقد أفتى سليمان حافظ، وهو رجل القانون الثانى بعد السنهورى مستشار الثورة أن الماركسيين متهمون بجريمة الشيوعيه وهى جريمة اجتماعية وليست سياسة، ولهذا ثم استثنائهم من حكم الإفراج.

كانت الفرحة تواكب خطوى فى ذهابى وإيابى من الأزهر، وكنت أقرأ علامات السعادة على وجوه الناس بالثورة، وكانت الإذاعة تبث الأغانى الحماسية فتثير الفرحة فى نفوسهم، لكن فرحتى وئدت

فى المهد، إذ اختلف قادة الثورة فى الآراء، فتأمر الصغير على الكبير، عزله وحدد إقامته لمجرد اختلافهما فى الرأى، وعطل الدستور وألغى الحياة النيابية، ومد العمل بقانون الأحكام العرفية، وأعتقل المؤيدين لعودة العسكر إلى ثكناتهم، وتسليم الحكم للمدنيين، وعلى شيوعى حدتو الذين أيدوا الثورة فى بداياتها واستمرار الرقابة على الصحف، والقبض على جماعة الإخوان المسلمين وتصفية قادتهم، والقبض على قيادات الوفد والسياسيين من بقية الأحزاب.

تبدلت الابتسامات فى وجوهنا ليحل محلها العبوس، وعبد الدايم لم يعد يرجع الى السكن إلا فى ساعات متأخرة من الليل، ولم يعد يذاكر دروسه، أو يمارس هواية القراءة .. لم أعد أره إلا لماما. فى الصباح يزدرد لقيمات مع الشاى الممزوج بالحليب وهو واقف على قدميه، ثم يجرى خارجاً .. لا أعرف أين يذهب، ومن أين يأتى ولا متى،

- إيه يا صاحبى .. مالك ..؟
- أبدا.
- لم تعد تحدثنى عن الثورة ولا عن طموحاتك، ولم تعد ضحكتك تضىء وجهك.

قال بأسىً: كنا غير راضين عن الملك وحاشيته والباشوات والإقطاع وهم غير مصريين، فما ظنك إذا حل محلهم مصريون؟

قلت: يكون الأمر ادهى وأمر.

قال: هذا ما كان من أمر العسكر .. كان يجب أن ندرك من البداية أنهم تربوا فى أحضان الديكتاتورية، على مبدأ نفذ ثم تظلم،

فلم يعتادوا الرأى الآخر .. تغلغلت الديكتاتورية فى نفوسهم وامتزجت بدمائهم، فلم يقبلوا مشاركة أصحاب الفكر لهم فى الحكم.

قلت: أو حتى مجرد مشورتهم إذا عنت لهم مشكلة ما.

قال: ولكن يتهورون الى حد إعدام عاملين فى كفر الدوار بعد محاكمتهما صورياً أمام محكمة عسكرية؟! ورفض قيام حزب للشيوعيين بحجة قيامهم بمظاهرات؟

قلت: يبدو أننا سنبدأ من جديد، وكأنك يا أبوزيد ما غزيت.

قال: الأمر سيكون أصعب هذه المرة.

ثم بعد فترة صمت قال: ارتد ملابسك حالاً:

تساءلت: لماذا ..؟

قال: هيا بسرعة.

فى الطريق عرفت أننا سنذهب الى الجامعة .. كانت الشمس آخذه فى الأفول، والطرقات تكاد تكون خالية من الناس والمركبات.

دق قلبى بعنف وقدماى تطآن لأول مرة حرم الجامعة .. قرأت اللافتة النحاسية الصغيرة المثبته على واجهة مبنى الميمنة ..

كلية الآداب، والحقوق على اليسار .. اتجهنا للمبنى القابع تحت القبة المرسومة على أغلفة الكشاكيل .. ولجنا قاعة كبيرة تعج بالأساتذة والطلاب، اعتلى أحدهم المنصة ... ساد الصمت فانتشر صوته مجلجلاً فى أرجاء القاعة:

إننا نمر بأحرج فترة فى حياتنا السياسية .. فإما أن نكون بإعادة الحياة الدستورية لبلدنا ونمارس كلنا حق التعبير فى حرية تامة، وإما لا

نكون إن لم نقدر أن نحقق ذلك،. ولكن كيف نحققها وقد رفض العسكر أن يعيدو للأمة حقها الطبيعى فى التعبير عن إرادتها ..؟

ارتفعت أصوات الحاضرين واختلطت فى سماء القاعة، فلم نعد نميز بينها، وحاول البعض إعادة النظام، وفجأة ساد الهرج والمرج القاعة وارتفع صراخ البعض الذين لم يشعروا إلا بالعصى تنهال على رؤوسهم ومناكبهم.

صاح نفر من خلال الميكروفون: ها هم عسكر الثورة يؤكدون رفضهم ممارسة الديمقراطية وحرية التعبير وحرية الاجتماع بطريقة عملية .. لم يجد العسكر بداً من قطع التيار الكهربائى، فساد الظلام وكثر اللغط، فرحنا نتلمس الجدران حتى عثرنا على الأبواب.

قلت لعبد الدايم الأفضل أن لا تذهب الى الجامعة غداً.

اعترته الدهشة ثم استأذننى فى عدم العودة معى الى البيت، لم أشأ أن أسأله عن مقصده .. اشتريت خبزاً وسمكاً مقلياً ودفعت شلنا للبائع .. لم أحس بلذة الطعام، إذ انهمكت فى قراءة سيناريو التمثيلية الهزلية بين التابعى ومصطفى أمين .. أولهما يرفض فى مقالاته تعدد الأحزاب، والآخر يؤيدها، ثم اقترحا فى النهاية أن يحتكما الى الشعب الذى قالوا عنه زوراً إنه أرسل آلاف الرسائل لتأييد قيام الحزب الواحد ..

سيناريو فاشل، إذ كيف يعقل أن يرضى الشعب الذى تعود على الاختيار من بين الأحزاد، العديدة حزباً شمولياً واحداً؟!!

جافانى النوم فى هذا اليوم فقضيت ليلتى فى قراءة الدستور والاعتداء عليه، حتى أحسست بمفتاح يدخل فى فراغ الباب ..

- مَن ..؟ زعقت فزعاً
- عبد الدايم.

ناولنى منشوراً قبل أن أسأله عن الأخبار .. جرت عيناى فوق السطور .. دعوة من جبهة الاتحاد الوطنى الى تكوين حكومة من جميع الهيئات والأحزاب التى وقفت فى وجه الفاشية العسكرية من الوفديين والاشتراكيين والشيوعيين والإخوان المسلمين لتنفيذ بنود الميثاق الذى أجمع عليه الحاضرون.

- وما هى جبهة الاتحاد الوطنى هذه ..؟ ومَن هم أعضاءها ..؟
سالت عبد الدايم.
قال: جبهه سرية من الطلبة، و
سمعنا طرقاً قوياً ومتتابعاً على الباب.
- مَن .. مَن ..!؟ صرخنا فزعين.

اختطف عبد الدايم المنشور ومزقه حتى صار قصاصات صغيرة ورمى بها من نافذة تطل على منور، ثم جرى الى الباب وفتحه .. اقتحم الشقة ضابط وثلاثة مخبرين .. زعق الضابط فينا: ارفعا أيديكما ووجهكما للحائط .. قلب المخبرون الشقة .. فتشوا الجيوب ورموا المراتب والوسائد على الأرض، لم يتركوا كتاباً .. دخلوا تحت الأسرة ..

- تمام يا أفندم .. لم نجد شيئاً.
- هاتوا الكتب.

واقتادونا أمامهم، وأيادينا مربوطة بأحبال اللوف، زجوا بنا فى صندوق سيارة كبيرة، وأغلقوا علينا بابه الحديدي .. لم يعد يربطنا

بالعالم سوى طاقتين كسيتا بالسلك الشبكى القوى .. أحسست بقلبى يسقط .. ركبنى الهم فلم أقدر على التركيز أو مجرد التفكير فى شىء .. تراءت لى أمى تندبنى وعماتى يبكين فقدى، وأعمامى يجرون شمالاً ويميناً يبحثون عنى.

شملنا الصمت والحزن .. أسند عبد الدايم رأسه بكفيه وأغلق عينيه واستغرق فى التفكير.

ظلت السيارة تجوب بنا شوارع القاهرة حتى وقفت بنا أمام مبنى ضخم .. تحركت مفاتيح فى فراغ القفل .. شخط فينا عسكرى ضخم الوجه والشارب: انزل منك له .. بهائم .. أتظنون أنكم ستغيرون الكون ..؟ جتكم البلاوى.

دفعنا أمامه .. تركنا لأحد الضباط بعد أن وقَّع له على دفتر صغير .. سلسلونا فى قيد واحد .. تقرفصنا بجوار جدار سودته القذارة حتى طلع علينا الصبح .. اقتادونا الى بهو واسع ازدحم بالمخبرين وضباط المباحث والمقبوض عليهم .. أحسست بانقباض وسقط قلبى رعباً لما التقطت أذناى أصوات رجال يصرخون ألماً ..

آآى .. آآآى .. آآه.

أدخلونا حجرة أخرى .. هاجمتنا الظلمة ورائحة ثقيلة وهمهمات من حولنا .. مرت فترة من الزمن خلتها دهوراً حتى اعتدنا الظلمة .. جاست عيناى خلال الوجوه المرصوصة بجوار بعضها ..

- مَن .. أمعقول هذا .. الأستاذ ميلاد؟

صحت فرحاً بلقائه ونسيت حز القيد فى معصمى، وليلة الأمس الكئيبة والرائحة الثقيلة المقبضة.

شد على يدى .. قرأ سؤالاً فى عينى لم أنطق به.

قال: مجرد حركة تمشيط .. قبضوا على كل التيارات الفكرية والسياسية.

سألت: لم؟

أمال رأسه الى رأسى وقال: يُقال أنه تم تكوين جماعة ثورية لاغتيال رموز الثورة وأعضاء الحكومة، مما حدا بهم الى اعتقال أعداد كبيرة من المواطنين والطلبة، وفصل الكثير منهم، وعزل بعض اساتذة الجامعات، وكل الوزراء المدنيين الذين شغلوا الوزارة قبل الثورة خلال الفترة من ١٩٤٢ – ١٩٥٢م.

ميلاد حنا الراهب .. زعق عسكري باسمه .. تسارعت ضربات قلبى .. هب واقفاً ربت على ظهرى .. قال وهو يشد الخطو مبتعداً: سنلتقى ثانية.

قلت: ضرورى.

لم تفارقه ابتسامته .. تابعته عيناى حتى أختفى وراء الجدران العالية.

شعرت برجفة تعترينى.

لم يكن الصوت غريباً عنى .. آآى .. يا أولاد الكلاب .. يا عملاء .. آآى .. آى.

تلصصت على عبد الدايم .. كان غارقاً فى التفكير، بينما كسى الحزن وجهه وعينيه .. تطلع نحوى . أومأ الىَّ مشجعا، ثم قلت له وقد رسمت بسمة على شفتى: شدة وتزول.

– ماذا كان يقول لك ..؟

ثم أوصانى بأن لا أنطق بشيء.

أومأت برأسى قائلاً: طبعاً.

ثم أردف مؤكداً: وأنت طبيعى لا تعرف شيئاً.

قلت مؤكداً: نعم

تزلزل كيانى كله لما نودى على اسمى .. تعمدوا أن يكون التحقيق معى قبل عبد الدايم .. ربما أرادوا أن يوقعوا بى، أن يسألونى عن نشاطه، ماذا تعرف عنه، من هم أصدقاؤه، ماذا يقرأ، هل يحضر معه منشورات الى السكن، ما هى آراؤه..؟ من يجيء لزيارته ..؟

دفعنى العسكرى أمامه، وجدت نفسى أمام عدد من الضباط .. جلس كبيرهم وراء منضدة متوسطة الحجم تمددت فوقها عصا غليظة ..

سألنى: اسمك ..؟

- ذا النون

- لماذا كنت فى اجتماع الجامعة؟

- مجرد حب استطلاع.

- اسمع .. من غير لف ودوران، فنحن نعرف كل شىء ولا يخفى علينا شىء. ما رأيك فى الثورة؟

- انتظرناها طويلاً، وسعدنا كثيراً عند قيامها، وكانت سعادتنا أكبر بإلغاء الملكية وإعلان المبادئ الستة.

- وما رأيك فى عودة الضباط لثكناتهم.

- المهم إعادة الحياة النيابية، والدستور، وإلغاء الأحكام العرفية.

- وقع هنا.

رحت أقرأ في الورقة .. أؤيد الحزب الواحد، وتأجيل إعلان الدستور، وتأمينا للثورة وما قامت لتحقيقه فإننى أرى استمرار الأحكام العرفية حتى تؤمن جانبها، وأرفض مظاهرات العمال وبيانات المثقفين، وما يطالب به المتطرفون في الجامعة.

ألقيت بالقلم ورفضت التوقيع.

كانت عيونهم تطل علىَّ مثل فوهات النار، وصوت رئيسهم يهدر غاضباً: يجب أن توقع.

(الفرق بين الموت والحياة، لحظة تمر كالبرق لا أحس بشىء بعدها .. أما الحياة طالت أم قصرت في ذل فلن أحتملها)

ران الصمت فهدر صوته قائلاً: هنا ستموت.

وفى الحال وجدت رجلين في ضخامة الثيران، ينطلق الشرر من أعينهما؟، يقفان عن يمينى وعن شمالى، قال رئيسهم وهو يومئ إليهما: العروسة.

دفعانى إلى حجرة كابية الضوء، عالية الجدران.، جردانى من ملابسى اقتدانى الى خشبة فى طرفيها بروز على هيئة صليب، قيدا فيه ذراعى، وأدخلا رأسى في فراغ دائرة في وسطها وتبادلا ضرب ظهرى بالسوط .. آآآى .. آآآه.

كان الكرباج ينغرس في ظهرى ويمحو جلدى .. سال دمى، أغرق ساقى، غبت عن الوعى فلم أحس بشىء، لما أفقت جاء أحد الضباط .. قال: لن يفيدك العناد، والأفضل لك أن تعترف على صاحبك وتوقع على الورقة التى قرأتها حتى نتركك تذهب لحال سبيلك.

هاه .. ستوقع .. أليس كذلك؟

(بين الصمود والسقوط لحظة .. كن عنيداً كالثور، وأفعل شيئاً قبل أن تموت .. كلمات أتذكرها ولا أعرف قائلها، لكننى مقتنع بها).

طاخ .. دب .. آآآه .. آآى ..

- ستوقع ..؟
- لأ .. لأ.
- إذن ستكون نهايتك على أيدينا .. ستموت فطيساً ..
- طاخ .. دب.

آآآ .. آآآ .. ى ..

- وقعت أم لم توقع فلن يفيد رفضك شيئاً.
- ...
- والله ستموت ولن تعرف أمك لك طريقاً.

أحسست بكل جزء في جسدى متورماً .. كدت أقع وأتمدد على بلاط الغرفة .. أظلمت الدنيا حولى ولم أستطع أن أميز بين الأشياء .. لم أعد أحس بشيء .. صرت كالمنوم أو من تخدر جسده كله.

هاتوه.

سمعت الصوت آتياً من الخارج .. سحبونى وراءهم .. وجدتنى أقف أمامه مرة ثانية.

- ماذا تعرف عن عبد الدايم ..؟
- زميلى في السكن .. مجتهد وطموح.

- ثم ماذا ..؟
- هذا كل ما أعرفه.
- والمنشورات؟
- منشورات؟
- التى يتولى توزيعها في الجامعة.
- لا أعرف شيئاً عنها.
- أين يطبعها ..؟
- لا أعرف.
- قل ما تعرفه حتى نتركك تذهب إلى سكنك وتبيت فيه ليلتك.
- لا أعرف شيئاً.
- إن لم تعترف فستفصل من الدراسة.

(أنت الذى تصنع نفسك وليس الآخرون، وعباس العقاد علم نفسه .. بين الموت والحياة لحظة، والموت أفضل من الحياة الذليلة.)

- ألِن رأسك ولا تركبها.

لم أجد غير الصمت ألوذ إليه .. احتد .. احمرت عيناه وانتفخت عروق رقبته وهو يزعق:

- تكلم يا شرموط.

وهوى على كتفى بالعصا، وظل يضربنى حتى خارت قواه، وتكوم جسدى في اللاوعى، وأفقت بعد عدة ساعات، لأجدنى في الغرفة الواسعة ممداً فوق بلاطها أتلوى من الألم وبجوارى انعم ميلاد غائب عن الوعى، يئن أ ً ولا أقدر أن أعمل شيئاً له، وصرا عبد الدايم يجيئنى

مـن الغرفـة العاليـة السـقف سـكاكين تـدمينى، ولأنـى وقعـت في أسـر الحمـى، ولأنهـم لا يريـدوننى أن أمـوت عنـدهم فقـد أفرجـوا عنـى لأمـوت بعيداً عنهم.

*   *   *

امتزجت الفرحة بالفزع في صرختها لما رأتنـى أمامهـا .. جـرت الىّ وطوتنى في حضنها، وهى تردد في لهفة:

أهلاً ولد أخوى .. انشغلنا عليك، ، أين كنت ..؟ أعمامك بحثـوا عنك في كل مكان .. سألوا كل من يعرفونـه عليك .. ومـا هـذا الهـزال؟ وما هذه الكدمات .. بالله تتكلم يا وليدى .. الله عليك تقول أى شـيء .. أرحنى يا وليدى.

لم تشـأ أن تتركنـى وحـدى وتـذهب لتخـبر أعمـامى وجـدى، فانتظرت حتى جاء زوجها، الذى أسرع باستدعاء طبيب،. حاول أن ينض عنى قميصى أغشى علىّ .. اضطررت أن أرقد على بطنى لأيام حتى تلتئم جروحى، سكن الخوف صدور إخوتى فلم يفـارقوننى، وكـل يـوم يجـىء نـاس النجع .. يلتفون حولى ولا يتركونى إلا في الليل .. مالنـا والسياسـة يـا ولدى.

- ليس لنا فيها والله.
- ليس وراءها غير الخراب، وهذه هى النتيجة.
- العسكر، وما أدراك ما العسكر؟!

ثم قال قائل منهم لم أستطع أن أدير إليه وجهى لأعرفه:

الحقيقة أن الثورة كان لابد منها، وهى في حد ذاتها عمل عظيم ورائـع لكـن الأروع منهـا أن يقـوم قادتهـا بتسـليم السـلطة للمـدنيين

الوطنيين، ومنع كل من اشترك في إفساد الحياة السياسية في العصر الملكى من مزاولة العمل السياسى.

كانت الأيام تمر بطيئة، قلقة، مملة، وكانت الجراح تلتئم ببطء شديد، لكنى استطعت أن أنام على جنبى، ورويداً رويداً استعدت عافيتى.

* * *

قال لى عمى عبدون: جدك كبر ولم يعد قادراً على العمل، واتفقنا معه على السفر إلى البلد ليقيم هناك مع زوجته، ولا نستطيع أن نتركه يسافر وحده، فما رأيك لو سافرت معه ..؟

قال عمى عثمان قبل أن أتفوه بكلمة: والله فرصة ترى فيها أمك وأخواتك، وتبعد عن مصر المدينة بضعة شهور.

اشترت عماتى المقاطف من العشماوى وملأنها بحبات البطاطس والبصل والبرتقال وأقماع السكر وقوالب الحلاوة الطحينية وعلب الشاى وأمتار الباتستا والدمور ومناديل الرأس والملبس والفول السودانى، ثم جلسن على الأرض يحكن قطع الخيش على أحرف المقاطف ويندينها بالماء، ثم يأمرننى بأن أكتب عليها اسمى أو اسم جدى .. وقورته فوق الشلال، نجع الجزيرة وربطن أشرطة حمراء على كل أذن منها.

وذهب إخوتى إلى المحطة من طلعة النهار ليحجزوا لنا أماكن في القطار المسافر إلى الشلال .. كانت النوافذ محطمة، والزجاج مكسوراً، والمقاعد الخشبية تؤلم مقعدتى والباعة الجائلون أكثر من الهم على القلب، وأحذية العسكر الذين احتلوا أرفف الحقائب والأمتعة

تدك رؤوسنا ، وأصوات الباعة الزاعقة تتداخل .. تختلط بدخان اللفائف وأنفاس الركاب، ترتد لتهاجم رؤوسنا .. تخترقها .. تصدعها.

أحتوى رأسى بكفىَّ أمنعها من الانفجار ، وعيناى تسافران عبر النافذة المحطم زجاجها إلى الخارج .. تصطدمان بالريفيات المقعيات على الشاطئ عند مجرى النهر يغسلن أثواباً وأوان، وصبية يسبحن عرايا ، وآخرون يغسلون فراء مواشى وجلود حمير، وطفل يتبرز، وبط يسبح، وحيوانات تلوك في تكاسل ما تجتره، وفلاحون يفترشون ظل شجرة يدخنون المعسل و .. آآآخ .. رأسى تهرسها العجلات الحديدية .. شد جدى حولها منديله وعقد أطرافه وسقانى قرصين أسبرين.

في الشلال أفرغ القطار ما في جوفه .. انتشروا على شاطىء النهر .. زحموه .. تتطلع الأعين نحو الجنوب .. تبحثان في لهفة عن البوسته التى ستقلهم إلى قراهم التى يتوقون إليها ..

تذكرت خطاب العم دهب الوحيد الذى أرسله لى قبل أسبوع من سفرى، يصف في سطوره خطوطاً بيضاء رآها عند اقرب نقتطين متقابلتين من اليابسه المحيطة بالنهر عرفت من أحد المهندسين أنها تحدد موقعى السد المزمع إنشاؤه.

ارتسمت علامات الاستفهام على وجهى فاستطرد قائلاً: لم يعد الخزان يفى بحاجتنا من المياه والكهرباء.

قلت منفعلاً: هل كتب علينا وحدنا التضحية والهجرة الدائمة ..؟

تأففت ألماً وحزناً .. ماذا أفعل .. أأرجع من حيث أتيت بعد أن تهدمت كل آمال البقاء .. فلا مشاريع زراعية ولا أى شىء آخر يدعو

للبقاء .. فما الفائدة من بناء نعلم سلفاً أنه سينهار بعد عام أو حتى عشرة أعوام ..؟

تلتقط عيناى الدور متناثرة على بساط الرمال وقمم التلال الصخرية، يفصلها عن الجبال الراسخة غربها أراض سهلية واسعة تمتد حتى المدى .. تذكرت ما قاله أحد الشيوخ النوبيين أن هناك أراض سهلية واسعة في وادى السياله ووادى العلاقى تكفى لاستيعاب كل النوبيين، فياليت حكومة الثورة تعيد توزيعنا في هذه الوديان وتخطط لإصلاح أراض زراعية ليتحقق لنا الاستقرار حول نهرنا العظيم الذى يفيض كل عام بمياه طامية تجرى نحو الشمال لتنشر الخير والنماء، فلماذا لا نعمل على أن تجرى هذه المياه العفيه إلى تلك الأراضى وتتسرب إلى إعماقها عبر مسامها، ليتفجر باطنها بالخير، ويتبدل ثوبها الأصفر الكالح بثوب سندسى ترتاح لرؤيته العين، وينمو الأمل في بناء قرى جديدة حول هذا السد ..؟ يجب أن يكون هذا هدفنا ومطلبنا الدائم، وعدم التوانى فيه حتى نحققه .. وعلى الرغم من الراحة النفسية التى شعرتها وجدتنى أتساءل وصفرة الرمال تحيطنى من كل صوب: لماذا ترك المسئولون أرضنا قاحلة والماء يجرى في النهر بجوارها إلا إذا كان الهدف هو تفريغ القرى من ناسها وتذويبهم في مدن التهجير ..

تواوت .. تواوت.

اتجهت الأعين ناحية الجنوب .. صاحت الحناجر فرحة: البوستة وصلت .. كانت تبدو كنقطة في وسط النهر، ظلت تكبر كلما اقتربت حتى صارت كحوت كبير يمخر عباب الماء ... انتشر اللغط في الميناء .. كل يجرى صوب المرسى حاملاً أمتعته.

- كل واحد يظل مكانه .. ما أحد ينزل الحين .. اتركوا النازلين ينزلوا الأول.

تسمر الناس في اماكنهم .. لم يقتربوا من المرسى حتى نزل آخر راكب من البوسته.

حملت وحدى أمتعتنا ومن ورائى سارت صليحة حسين، تعتلى الفرحة وجهها منذ أن وطأت قدماها أرض الميناء، ورأت عيناها من البعيد بيوت قرية دابود متناثره فوق التلال الصغيرة.

قال لها جدى هامساً: على مهلك .. بالراحة.

قالت بمرح وهى تتحسن بطنها: خايفة عليها؟

"على من يخاف جدى ..؟ أهى حامل ..؟ آآآه ..

وأنا مثل الأطرش في الزفة .. من لحظة فقط كنت أتساءل عن سبب فرحتها .. ستلد بكريها في قريتها.

قلت لها: مبروك يا صليحة.

قالت وهى تدارى جانباً من وجهها بطرف شُقتها: الله يبارك فيك.

سألتها: ماذا ستسمينه إن كان ولداً ..؟

قالت: اختر له اسماً.

قلت: بعنخى .. سمه بعنخى.

فنجلت عينيها دهشاً ولم تنطق .. كان الاسم غريباً عليها فأصابها الخرس.

قلت: إنه اسم جدنا الأول.

قالت: تعرف .. أنا آوز يكون آندى تلاتين ولد.

صحت دهشاً: ثلاثون؟!!

قالت: أشان يزرعوا النجع كله.

قلت فرحاً: تعيشى يا مرات جدى.

غلب النوم جدى فاستسلم له .. قمت وارتقيت الدرج الضيق إلى سطح الباخرة .. ارتكزت على السور المعدنى .. أرسلت بصرى للبعيد .. رأيت طريقاً طويلاً طويلاً يشق الجبال .. وجدتنى أقف على أوله متردداً .. تنساب إلى أذنى موسيقى رائعة، تخللها صوت يغنى:

"إذا أردت أن تأخذ نجمة من السماء

فلا تكترث بحالتك اليوم أو قوتك

المهم أن تبقى تحلم وتبقى تحاول.

لا تتنازل أبداً ولا تستسلم أبداً

وتأكد أنك بذلك سوف تنجح

وسوف يأتى اليوم الذى ستأخذ فيه النجمة

التى أحببتها وتمنيتها وانتظرتها طويلاً.

الشركة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع